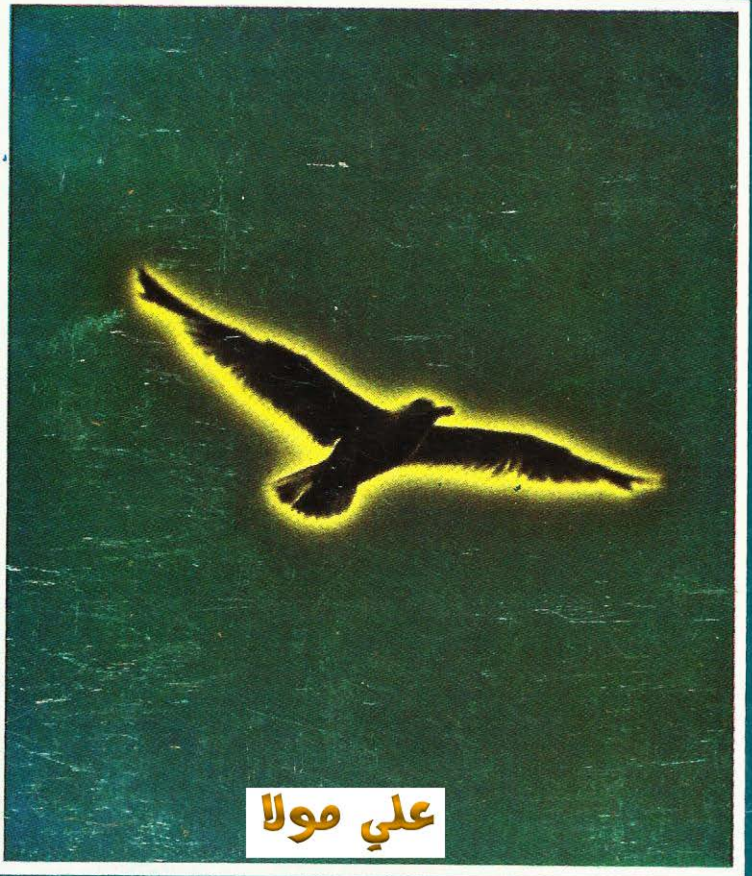
ريتشارد باخ

النورس

جوناثان

«قصّـة»



ترجمة عن الإنكليزيّة

ريمة الحسيني

دمشق ــ أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

النورس
جوناثان

«قصــة»

الطبعة الأولى
١٩٨٩

ريتشارد باخ

النورس جوناثان

«قصّة»

ترجمة عن الإنكليزيّة

ريمة الحسيني

تصوير راسل مانسون

لقد حقق ريتشارد باخ في كتابه هذا
شيئين أُدين له بهما . فمعه أُحلِّق بعيداً وأعود شاباً .

راي برادباري

هذا الكتاب مواطِنٌ جديد وقيِّم
في العالم المدهش الذي يحكمه القديس إكسابوي
وأظن أن كلَّ مَنْ يزور عوالِمَ
النورسِ جوناثان سيرفض أن يغادرَها

إرنست ك . كان

مؤلف كتاب الجليل والقدير

ريتشـــارد بـاخ

إنه كاتبٌ وطيارٌ ألَّف ثلاثةَ كُتُبٍ
عن غموض الطيران ، ونشرَ مجلةً عن الطيران ،
وكتب ما يزيدُ عن مئة مقال وقصةٍ
في هذا المجال خلال السنين العشرِ الماضية .
لقد كان طياراً في القوى الجوية الأمريكية ،
ونادراً ما نراه الآن دونَ صُحبة طائرةٍ .

راسل مانسون

بدأ بالتقاط صور الطائرات وهو طفلٌ
وتضلَّع في مجال الطيران وتصويره منذ
ذلك الحين .

إلى النورسِ جوناثان
الذي يعيش في قلوبِنا جميعاً







القسم الأول



كان الوقتُ صباحاً ، وقد توهَّجَتْ أشعةُ الشمسِ الذهبيةِ على أمواج البحر الهادئِ.

توغَّل قاربُ الصيد في الماءِ إلى بعدِ ميلٍ من الشاطئِ، ولمَعَتْ كلمةُ الفَطورِ في السماءِ، فانقَضَّتْ ألوفٌ من طيورِ النورسِ مقاتلةً من أجل فُتاتِ الطعامِ. ها هي ذي بدايةُ يومٍ شاقٍ آخرَ.

بعيداً ووحيداً وراء القاربِ والشاطئِ كان النورسُ جوناثان ليفينجستون يتمرَّنُ على ارتفاعِ مئة قدمٍ. رفع منقارَهُ، خَفَضَ قدميه المكفَّفتين وجهد في حنو جناحيه حنوةً ملتويةً شاقةً ومؤلمةً، هذا التقوُّسُ يعني أن عليه أن يطيرَ ببطءٍ. وهو الآن يبطئ من سرعتِهِ، حتى أصبحت الرياحُ مجرَّدَ همسةٍ تداعبُ وجهَهُ، وحتى توقفَ المحيطُ ساكناً تحته. ضيَّق ما بين عينيه بتركيز شاق، ثم حبس أنفاسَهُ، وأجبرَ نفْسَهُ على التقوُّس... إنشاً... آخرَ. نَفَشَ ريشَهُ ثم توقفَ وسقَطَ.

وطيورُ النورسِ لا تتردَّدُ ولا تتوقفُ كما تعرفون. ومن الخِزْيِ والعارِ

أن تتوقفَ في الجوِّ. لكن النورسَ جوناثان ليفينجستون مدَّ جناحيه مرةً أخرى في انحناءةٍ شاقةٍ مرتجفةٍ، وأبطأ ثم أبطأ، وتوقف مرةً أخرى فهو لم يكن طائراً عادياً.

مُعْظَمُ النوارس لا تتكبد مشقَّةَ تَعَلُّمِ ما هو أكثرُ من أصولِ الطيران البسيطةِ، كيف تنتقلُ بين الشاطيء ومكان الطعامِ وبالعكسِ. فالطعامُ وليس الطيرانُ هو ما يشغَلُها. لكن النورسَ جوناثان ليفينجستون أَحبَّ الطيرانَ أكثَر من أيِّ شيء آخرَ.

وقد أَدْرَكَ أنَّ هذا النوع من التفكير ليس الطريقة المثلى لكسب ودّ الطيور الأخرى. حتى والداه خابَ أملُهما، لأنه كان يقضي أيامَهُ وحيداً، وهو يتمرَّن مكرِّراً مئاتِ المراتِ طيرانَهُ الانسيابيَّ على مستوىً منخفضٍ.

لم يعرفْ مثلاً لماذا كان في استطاعته أن يبقى في الجوِّ فترةً أطولَ وبجهدٍ أقل عندما يطير على ارتفاع يقلُّ عن طولِ جناحيه الممتدين.

ولم يكنْ طيرانُه الانسيابيُّ ينتهي بطرطشة مياهِ البحرِ بقدميهِ، بل كان يتركُ أثراً مسطحاً موازياً لجسدِهِ عندما تلمسُ قدماهُ الماءَ، وينزعجُ والداه بشكل جديّ عندما يبدأ بالتزلُّجِ، ليحط على الشاطيء متابعاً تزحلقَهُ فوقَ الرمالِ.

وتسأل أمُّه: «لماذا يصعُبُ عليك يا جون أن تكونَ مثلَ بقيةِ

السِّربِ؟ لِمَ لا يكون في استطاعتِكَ أن تتركَ الطيرانَ المنخفِضَ لطيورِ البلكانِ والقادوسِ؟ لِمَ لا تأكلُ يا جون؟ أنتَ كتلةٌ من الريشِ والعظمِ».

«لا أمانع في كوني كتلةً من العظمِ والريشِ يا أمي. أريد أن أعرفَ ما أستطيعُ فعلَهُ في الجوِّ، وما يتعذر علي. كلُّ ما هنالك أنني أريد أن أعرفَ». قال الأبُ بلطفٍ: «انتبه يا جون فالشتاءُ يقرعُ الأبوابَ. سيتقلصُ عددُ القواربِ، بينما تعمدُ الأسماكُ إلى السباحةِ في الأعماقِ. تعلَّمْ كلَّ ما يمكن عن الطعام، وكيفيةِ الحصولِ عليه إذا أردتَ أن تتعلَّمَ. لا يفيدُك هذا الاهتمامُ بالطيرانِ.

إنك لا تتغذى على الطيرانِ الانسيابي كما تعلم، فطيرانك هو وسيلةٌ للحصولِ على غذائِكَ».

طأطأ جوناثان رأسَهُ مطيعاً، وحاولَ خلالَ الأيام التاليةِ أن يتصرَّفَ مثلَ النوارس الأخرى. حاول جاهداً أن يزعقَ ويقاتلَ مع السِّربِ حول أرصفةِ الموانيءِ ومراكبِ الصيدِ، ملتقطاً قِطَعَ السمكِ والخُبزِ، ولم ينجحْ.

ألقى مرةً عن عَمَدٍ سمكةَ سردينٍ صَعْبَةَ المنالِ لنورسٍ عجوزٍ جائعٍ كان يلاحقُهُ، محدِّثاً نفسَه أنَّ هذا كلَّه عقيمٌ.

فباستطاعتي أن أقضيَ هذا الوقتَ وأنا أتعلَّمُ الطيرانَ. ما زال هنالك الكثيرُ مما يترتبُ عليَّ تعلُّمَهُ.

وسَرعانَ ما انطلقَ مرةً أخرى نحو أقاصي البحرِ وحيداً، جائعاً، سعيداً، طالباً المعرفةَ. الموضوعُ هو السُرْعَةُ. أسبوعٌ من التدريبِ كان كفيلاً بتعليمِهِ الكثيرَ عن السرعةِ، أكثرَ مما يعرفهُ أسرَعُ نورسٍ على قيدِ الحياةِ.

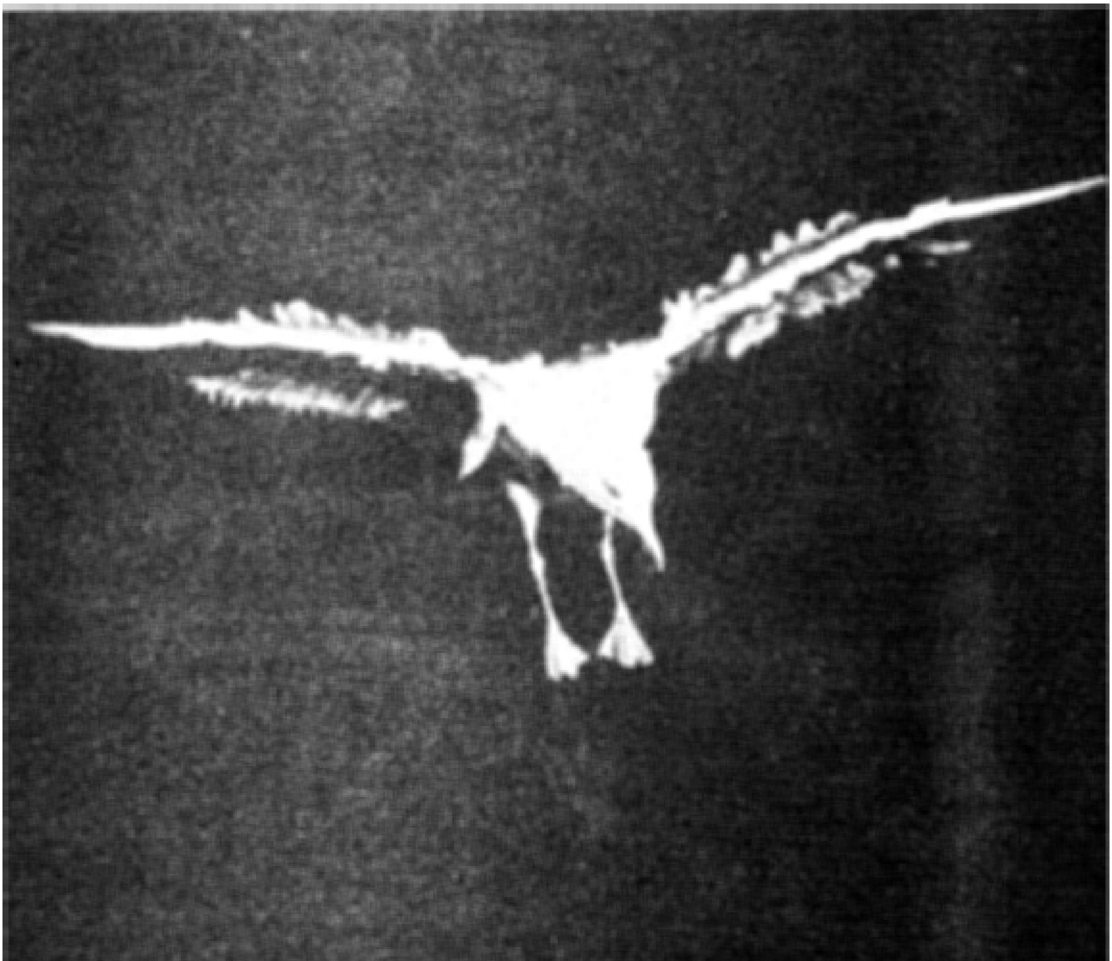
حرك جناحيهِ بقوةٍ واندفع من ارتفاع ألفِ قدمٍ نحوَ الأمواجِ في انقضاضةٍ لغطسةٍ قائمةٍ متوهجةٍ، وأدرك لماذا لا تغطِسُ طيورُ النورس غطْساتٍ قويةً قائمةً متوهجةً، توصل إلى قطعِ سبعينَ ميلاً في الساعةِ، وهي السُرعةُ التي تُفقِدُ الصَّدْمةُ عندها الجناحَ ثباتَه.

تكرر هذا مراراً، ورُغم حرصِه على الأداءِ بقمةِ قدراتِهِ، أفقدتْهُ السرعةُ قدرتَهُ على التحكُّم. كان يرتقي إلى ارتفاعِ ألفِ قدمٍ ويتجهُ بكاملِ قوتِهِ نحو الأمامِ أولاً، ثم يندفعُ مرفرفاً بجناحيهِ في غطسةٍ رأسيةٍ. وفي كل مرةٍ يتوقفُ جناحُهُ الأيسرُ بتأثيرِ الصدمةِ فيتدحرجُ بعنفٍ يساراً، ويستدركُ الأمرَ بإيقافِ جناحه الأيمن، ويستديرُ متوهجاً كالنارِ استدارةً عنيفةً متدحرجة نحو اليمين.

لم يتمكن من اتباعِ الحذرِ الكافي في مواجهةِ تلك الصَّدْمةِ. حاول عشراتِ المراتِ، وفي كل مرةٍ كان يتفجرُ كتلةً مرتجَّةً من الريش، بعدما تتجاوزُ سرعتُهُ السبعين ميلاً في الساعةِ، فاقداً سيطرتَهُ، ومتحطماً على الماء.

الحلُّ الذي توصل إليه أخيراً وهو يقطرُ ماءً، يكمن في أن يثبتَ





جناحيه عند السرعة القصوى. الحلُّ هو أن يرفَّ بجناحيه حتى يصل إلى سرعةِ خمسينَ، ثم يحتفظ بهما ثابتَين.

ومن ارتفاعِ ألفي قدمٍ حاول مرةً أُخرى. اندفعَ غاطساً ومنقارُهُ مستقيمٌ متوجِّهٌ نحو الأسفلِ، وثبَّتَ جناحيه منذُ اللحظةِ التي تجاوز فيها سرعةَ خمسين ميلاً في الساعةِ، وتطلبتِ المحاولة قوةً هائلةً لكنها نجحتْ.

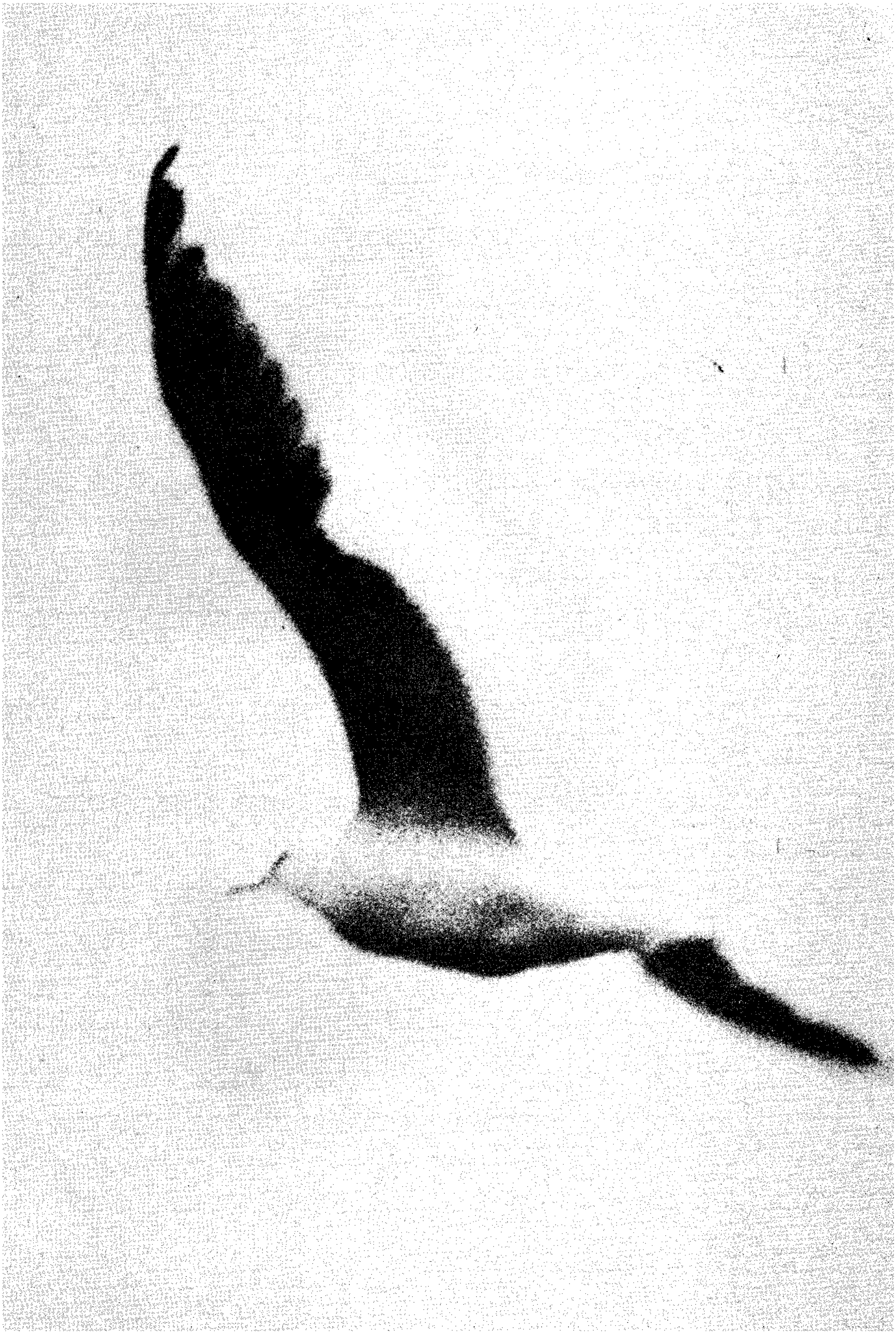
فخلالَ عشرِ ثوانٍ كان يطيرُ بسرعةِ تسعين ميلاً في الساعةِ مُسجِّلاً أولَ رقمٍ قياسيٍ للسرعةِ في تاريخِ طيورِ النورسِ.

لكن النصرَ لم يطلْ، فقد انتهى وفي اللحظةِ نفسها التي غير فيها زاوية حنوِ جناحيهِ معدِّلاً وضعيتَهُ إلى كارثةِ فُقدانِ السيطرةِ ذاتِها. وبسرعةِ تسعين ميلاً في الساعة لا بد أن تكونَ الصدمةُ هائلةً. وتفجَّر جوناثان في وسطِ الجوِّ وتحطَّمَ على سطحِ بحرٍ صَلْبٍ.

استعاد وَعيَهُ بعدما حلَّ الليلُ، وطفا على سطحِ المحيطِ تحتَ ضوءِ القمرِ. شعرَ أنَّ جناحيه قالبَا رصاصٍ، لكنَّ حجمَ الهزيمةِ كان الأكثرَ ثِقلاً فوق ظهرِهِ. وتمنى واهناً أن يكون الثقلُ كافياً لجذبِهِ بلطفٍ نحو الأعماقِ، لوضعِ حدٍ لحياتِهِ.

كان يغرَقُ تحتَ الماءِ عندما سمعَ صوتاً غريباً فارغاً ينبعُ من داخِلِهِ: لا مناصَ من كوني نورساً، طبيعتي هي التي تقيدُني، لوكان مقدراً لي أن أتعلمَ الكثيرَ عن الطيرانِ لكنتُ حَظيتُ بعقلٍ أكثرَ









إدراكاً. لو كان مُقَدَّراً لي أن أطيرَ بسرعةٍ لكنتُ حَظيتُ بجناحَيْ صقرٍ قصيرين، وبطعامٍ مؤلَّفٍ من الفئرانِ بدلاً من السَّمَكِ. والدي كان على حقٍ. يجب أن أتناسى كلَّ هذه الحماقاتِ. يجب أن أعودَ إلى السِّرْبِ، وأقنعَ بما أنا. نورسٌ مسكينٌ محدودُ القدراتِ.

تلاشى الصوتُ حين وصل جوناثان لهذه القناعة. إنَّ مكان النورس في الليل هو الشاطىء. وأخذ على نفسه عهداً أنْ يصبح نورساً عادياً منذ تلك اللحظة، فهذا هو مفتاحُ السعادةِ.

اندفع بتعبٍ بعيداً عن المياه المظلمةِ، وطار نحو اليابسةِ راضياً بكلِّ ما تعلَّمهُ عن الطيرانِ المنخفضِ الذي يَدَّخِرُ الجُهدَ.

لكنه قال لا، لقد تخلصتُ من الطريقةِ التي كنتُ أعيش وِفْقَها، لقد تخلصتُ من كلِّ ما تعلمتُهُ. أنا الآن نَوْرَسٌ كأي نورسٍ آخرَ، وسأطيرُ كواحدٍ منهم، لذلك ارتفعَ متألماً إلى علوِّ مئةِ قدمٍ مرفرفاً بجناحيهِ بصعوبةٍ ومتجهاً نحو الشاطىء.

شعر بتحسُّنٍ بعدما قرَّرَ أن يصبحَ واحداً من السِّرْبِ. لن يكون هناك أيُّ قيودٍ تربطُهُ بتلك القوةِ التي تجذبهُ نحو التعلُّمِ. لن يكون هناك أيُّ تحدٍ وأيُّ هزيمةٍ. ما أحلى أن يتوقفَ عن التفكيرِ، وأن يطيرَ عَبْرَ الظلامِ نحو النورِ فوق الشاطىء.

انبعث الصوتُ محذِّراً: إنه الظلامُ! وطيورُ النورسِ لا تطيرُ في

الظلامِ ! لم ينزعج جوناثان من سماعِ هذا، ما أجملَ القمرَ والأضواءَ وهي تتلألأُ فوقَ الماءِ كأنها أنوارُ منارةٍ في الليلِ. خيَّمَ السكونُ والسلامُ.

اهبطْ ! فالنوارسُ لا تطيرُ في الظلام. لو كان مُقَدَّراً لك أن تطيرَ في الظلامِ لحظيتَ بعيني بُومةٍ، وجناحي صَقْرٍ قصيرين إضافةً إلى عقلٍ أكثَرَ إدراكاً.

طَرَفَ النورسُ جوناثان بعينيه في الليل. وعلى ارتفاعِ مئة قدمٍ، اختفى ألمُهُ واختفى تصميمُهُ. يجب أن يكونَ لي جناحان قصيران، جناحا صقرٍ قصيران !

هذا هو الحَلُّ ! كم كنت أحمقاً. إنَّ ما أحتاجُهُ هو جناحان قصيران. كلُّ ما أحتاجه هو أن أطويَ أكبرَ قسمٍ من جناحيَّ وأطيرَ مستخدِماً نهايتيهما ! جناحانِ قصيرانِ !

ارتفع إلى علوِّ ألفي قدمٍ فوق البحرِ الداكنِ. ودون لحظةِ تفكيرٍ بالهزيمةِ والموتِ، شدَّ جناحَيه بقوةٍ إلى جَسَدِه تاركاً رأسَيهما ممتدَّين بمواجهةِ الرياحِ كخنجرين ضيقين، ثم انقضَّ انقضاضةً عموديةً.

عصفت الرياحُ برأسِه وانطلقَ بسرعةِ سبعين ميلاً في الساعة، تسعين، مئة وعشرين وأكثر.

لم يكن الضغطُ الذي تعرَّض إليه الجناحان وهما يطيران بسرعةِ مئةٍ

وأربعين ميلاً في الساعة مماثلاً للضغطِ الذي تحملاه بسرعة سبعين ميلاً في الساعة. وبتغييرٍ بسيطٍ في حركةِ رأسَيْ جناحَيه تمكن من تخفيفِ قوَّة انقضاضه، وارتطم بالأمواج كقُنبلةِ مدفعٍ رماديةٍ تحتَ ضوءِ القمر.

أغمضَ عينَيه ليشقَّ الرياحَ طَرِباً مهللاً، بسرعة مئة وأربعين ميلاً في الساعة! وبتحكمٍ تامٍ!

أتساءل كم ستكون سرعتي لو انقضضتُ من ارتفاعِ خمسةِ آلافِ قدمٍ بدلَ ألفين؟

كَنَسَتِ الرياحُ معها كلَّ الوعودِ التي أطلقها منذُ لحظةٍ ونسيَها. لم يشعرْ بالذنبِ وهو يحطِّمُ كلَّ الوعودِ التي قطعها على نفسِهِ. هذه الوعودُ تناسِبُ طيورَ النورسِ التي تقنعُ بالأمورِ العاديةِ. أما ذاك الذي ارتقى إلى قِمَّةِ التفوُّقِ في عِلْمِه فلا يحتاج إلى مثلِها.

ومع بزوغِ الشمسِ تدرَّب النورسُ جوناثان مرةً أخرى. ومن ارتفاعِ خمسةِ آلافِ قدمٍ بدتْ قواربُ الصيدِ بُقَعاً على سَطْحِ الماءِ الأزرقِ، بينما رأى سِرْبَ الفطورِ غيمةً باهتةً من ذراتِ الغبارِ الدائرةِ.

كان مليئاً بالحياةِ، مرتعشاً بنشوةٍ، وفخوراً لأنه أصبحَ يتحكَّم بخوفه. ودون أيِّ مقدماتٍ ضمَّ جناحَيهِ ومدَّ رأسَيْهما القصيرين المدبَّبينِ، وانقضَّ رأساً في البحر. وما إن تجاوَزَ في هبوطِه ارتفاع أربعة آلاف قَدمٍ حتى وصلَ إلى السرعةِ النهائيةِ، فالريحُ تصدَّتْ له كجدار من الصوت، ومنعتهُ من زيادةِ سرعتِهِ.

طار رأساً قاطعاً مئتين وأربعين ميلاً في الساعة. وابتلعَ ريقَه مُدْرِكاً أنه سيتفجَّرُ إلى فُتاتٍ صغيرةٍ لو بسطَ جناحيّهِ وهو بهذه السُرْعَةِ. لكن السرعةَ منحتْهُ القوةَ، والمُتعةَ، والجمالَ الخالصَ.

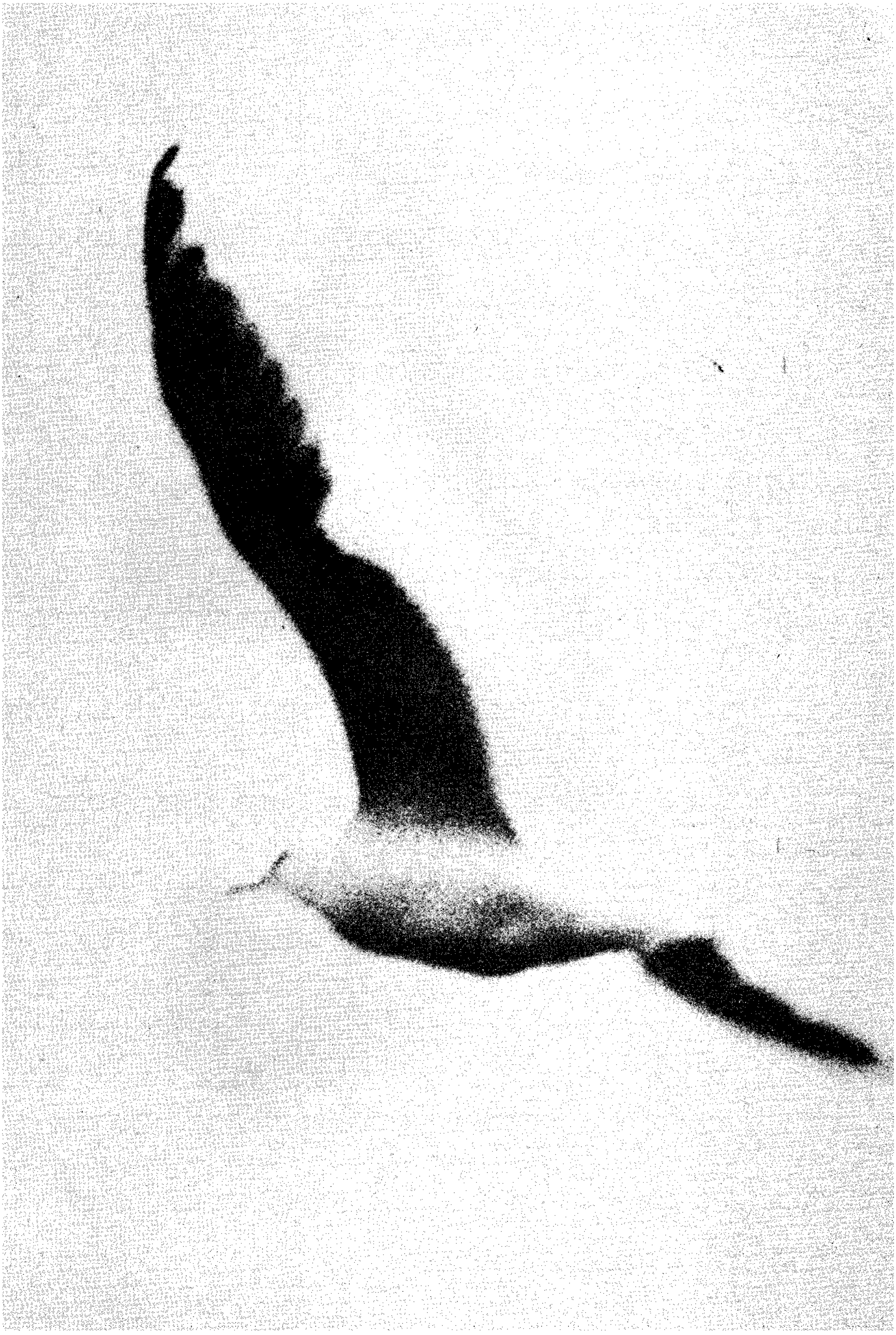
بدأ بتخفيفِ سرعتِهِ وهو على ارتفاعِ ألفِ قَدَمٍ، وطرفا جناحيه يتخبطان ويرتطمان بالريحِ العاتية. كان مُندفعاً بسرعةِ شهابٍ. ورأى القاربَ وجموعَ النورسِ أكبرَ حجماً، وهو متجه مباشرةً نحوهم. لم يستطعْ أن يتوقفَ، فهو يجهلُ حتى كيفية تغييرِ اتجاهِهِ، وهو بمثل هذه السرعةِ.

الارتطامُ يعني الموتَ الفوريَّ.

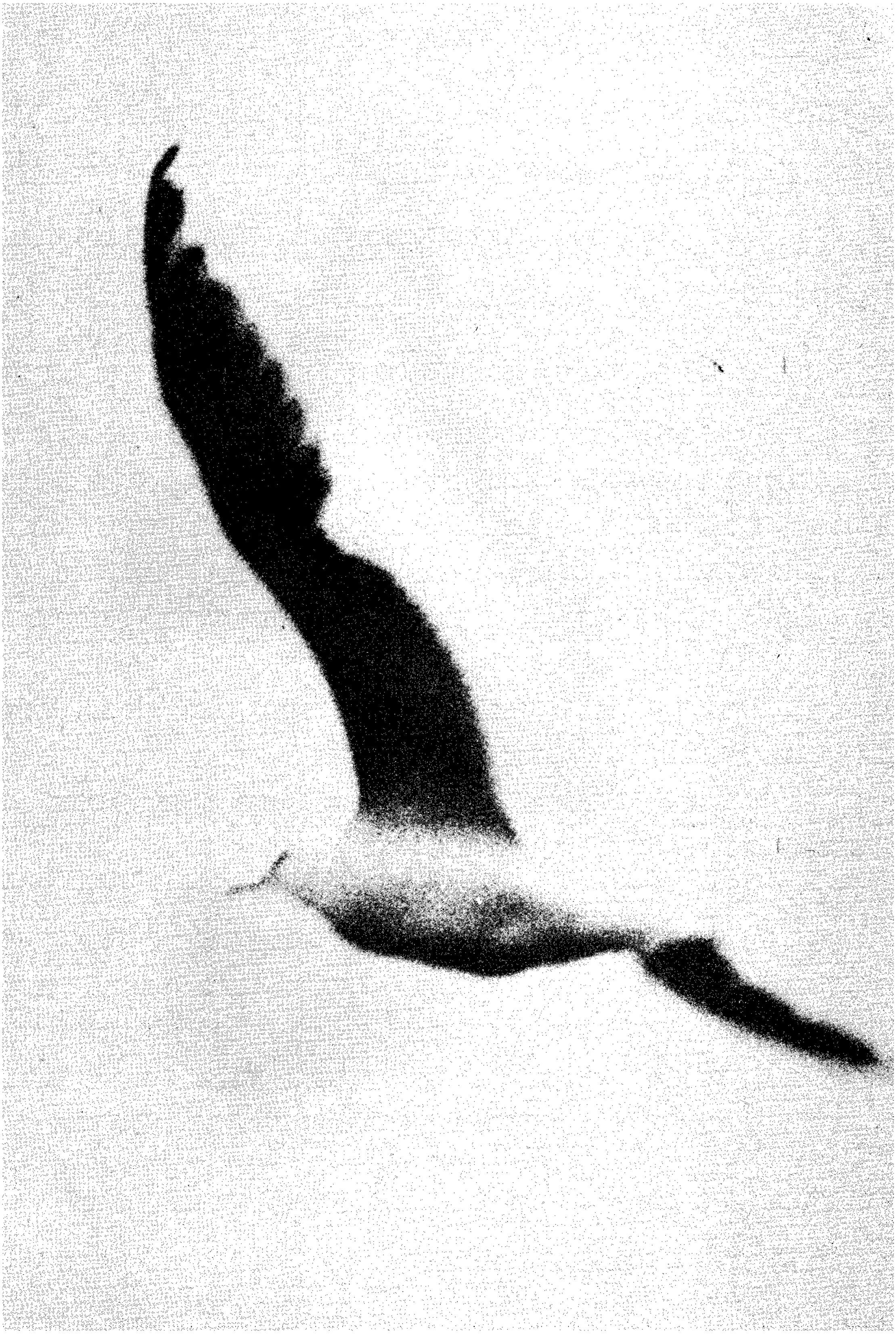
لذلك أغمض عينيه.

ما حدث في ذلك الصباح بعد شروقِ الشمسِ هو أنَّ النورسَ جوناثان ليفينجسون اندفع مباشرةً في قلبِ سِرْبِ الفطورِ بسرعة مئتين واثني عشرَ ميلاً في الساعة، مُغْمَض العينين وهادراً، مُرعِداً، صاعِقاً. وأسعفَهُ نورسُ الحظِّ هذه المرةِ فلم يقتلْ أحداً.

وفي اللحظة التي رفع فيها منقارَهُ نحو السماءِ، انطلقَ بسرعةِ مئةٍ وستينَ ميلاً في الساعة، ثم أَبطأ ومدَّ جناحية أخيراً، بعدما تجاوز في ارتفاعه أربعة آلافِ قدمٍ فوق القاربِ الذي بدا مثل كِسْرَةِ خُبْزٍ على سطحِ البحرِ.

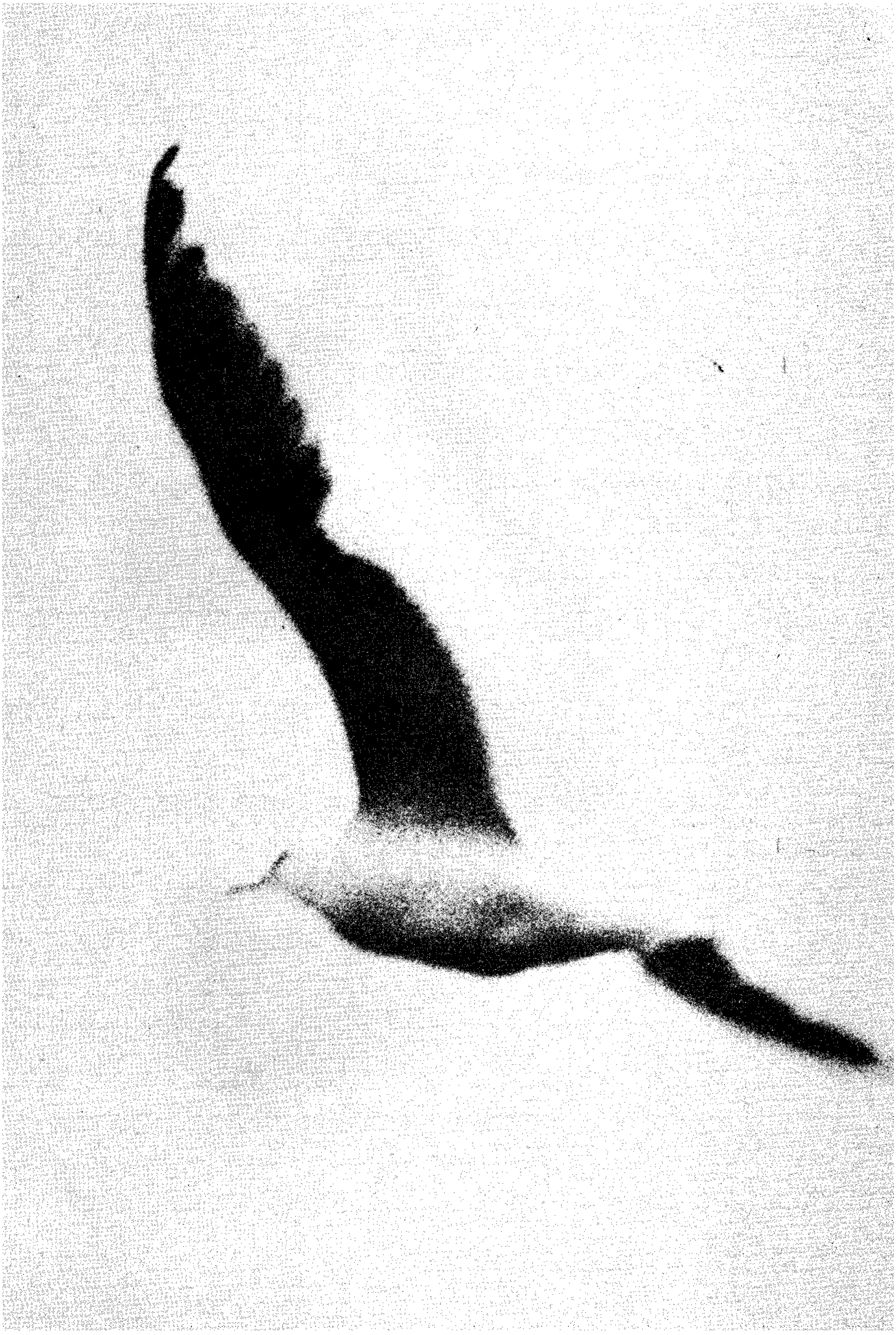












فكرتُهُ كانت انتصاراً. السرعةُ القُصوى !

نورسٌ يطيرُ بسرعة مئتين وأربعين ميلاً في الساعة! لقد حقق قفزةً علميةً، إنها أعظمُ لحظةٍ في تاريخِ السِّرْبِ. ومن هذه اللحظةِ بدأ عهدٌ جديدٌ في حياة النورسِ جوناثان ليفينجستون. حلَّق بعيداً إلى مكان تدريبه، وطوى جناحَيه مستعدّاً للانقضاض من ارتفاعِ ثمانيةِ آلافِ قدمٍ. مُفَكِّراً طوال الوقت باكتشاف طريقةٍ للارتدادِ.

اكتشف أنَّ تحريكَ ريشةٍ من طَرَفِ جناحِهِ مسافةً تقلُّ عن إنشٍ سيساعدُهُ على القيامِ بتقوُّسٍ لطيفٍ في أثناءِ طيرانِه بسرعةٍ هائلةٍ. وقد اكتشف قبل أن يتعلم هذا أنه سيدور كرصاصةِ بُندقيةٍ لو أنه حرَّكَ ريشتين أو أكثرَ وهو مُسْرِعٌ هكذا.

لقد كان جوناثان أولَ من طار طيراناً بهلوانياً هوائياً بين طيورِ النورسِ.

لم يضيِّعْ وقتاً في التحدث مع الطيورِ الأخرى يومَها، وطار نحو مغرِبِ الشمسِ. اكتشفَ الحركةَ الانقلابيةَ، والتدحرجَ البطيَء، والتدحرجَ المدبَّبَ، والدورانَ المقلوبَ، وحركةَ الدولابِ الناريِّ.

انضمَّ النورسُ جوناثان إلى السِّرْبِ على الشاطىء، بعدَ حلول الليلِ. كان يشعُر بدَوخةٍ وتعبٍ شديدين، ورغم ذلك طار طيراناً انقلابياً حتى حطَّ على الأرضِ بشقلبةٍ مفرقعةٍ. قال في نفسِهِ: سيقفزُون

من الفَرَحِ عندما أُخبرهم بما حققتُ. كم أصبحتِ الحياةُ غنيةً بالمعاني! بدلاً من الإغارات المملةِ ما بين قوارِبِ الصيدِ أضحى للحياة مغزىً! نستطيع أن نخرجَ من مغاوِرِ الجَهْلِ، ونجعلَ من أنفسِنا مخلوقاتٍ متفوقةً ذكيةً وماهرةً. نستطيعُ أن نتحرَّرَ! ونتعلَمَ الطيرانَ!

تلألأتِ السنواتُ القادمةُ وترنَّمَتْ بالأملِ. تجمعتْ طيورُ النورسِ لعَقْدِ مجلسٍ بعد هُبوطِهِ، وطَالَ تجمُّعُها، فقد كانت في الواقع تنتظر.

«النورسُ جوناثان ليفينجستون، قفْ في الوسط!» نطق كبيرُهمُ هذه الكلماتِ بصوتٍ متكلِّفٍ. الوقوف في الوَسَطِ يعني إمّا عاراً كبيراً، أو شرفاً عظيماً. كان قادةُ طيورِ النورسِ المميزون يُكَرَّمون بوقوفهم في الوسط.

فكر جوناثان: طبعاً لا شك أنَّ سِرْبَ الفطورِ رأى القفزةَ التي حققتُها. لا أريدُ أن أحظى بأيِّ شَرَفٍ، لا أرغبُ في أن أصبحَ زعيماً. أريد فقط أن أشاركَهُم بما اكتَشَفْتُهُ، وأن أريَهُمُ الآفاقَ الممتدَّةَ أمامَهم. تَقَدَّمْ قليلاً..

قال كبيرهم: «النورس جوناثان ليفينجستون، قفْ في الوَسَطِ على مرأى بقيةِ طيورِ النورسِ خِزياً وعاراً».

شعرَ وكأنه ضُرِبَ بعصاً، انهارَتْ رُكبتاهُ وتقوَّس ريشُهُ وسمعَ هديراً في أُذنيهِ. أقفُ في الوسط خِزْياً؟ مستحيل! والقفزةُ التي حققتُها

أليسَ باستطاعتهم أن يفهموا ! إنهم مخطئون ، إنهم مخطئون ! تابع الصوتُ الرزينُ « من أجل طيشِهِ وانعدامِ مسؤوليتِهِ ، وانتهاكِهِ شَرَفَ عائلةِ النورسِ وتقاليدِها » . أن يقف في الوَسَطِ خزياً وعاراً معناه أن يُنفى من مجتمعِ طيورِ النورسِ إلى حياةِ الوحدةِ على الصخورِ البعيدةِ .

« يوماً ما ستتعلم أيها النورسُ جوناثان ليفينجستون أنَّ انعدامَ الشعورِ بالمسؤوليةِ لا يُجدي . الحياةُ هي المجهولُ ، والذي لا يمكن معرفَتُهُ ، لقد خُلِقْنا في هذا العالم لنأكلَ ، لنعيشَ أطولَ فترةٍ ممكنةٍ » .

لا يتجرأ نورسٌ على الردِّ على مجلسِ السِّرْبِ . لكنَّ صوتَ جوناثان سُمِعَ وهو يقولُ : « انعدامُ الشعورِ بالمسؤولية ؟ يا أشقائي مَنْ هو أكثر إحساساً بالمسؤوليةِ مِنْ نورسٍ يجدُ مغزىً ويتَّبعُ هَدَفاً أسمى في الحياة ؟

عشنا ألفَ سنةٍ ونحن نقاتلُ من أجلِ رؤوسِ السَّمَكِ ، ولكن لدينا الآن ما نعيشُ من أجلِهِ ــ أنْ نتعلمَ ونكتشفَ ونكونَ أحراراً ! امنحوني فرصةً لأريَكُمْ ما توصلتُ إليه ... » .

وكأنما كان أفرادُ السِّرْبِ حجارةً .

ردَّوا جميعاً « لقد تحطمتِ الأُخوَّةُ » وبوقتٍ واحدٍ أصمُّوا آذانَهم وأداروا ظهورَهم له .

أمضى النورسُ جوناثان بقيةَ أيامِهِ وحيداً ، وطار بعيداً خلْفَ

الصخورِ. لم يتكبَّد الأسى لعُزْلتَهِ، ولكنْ لأن طيورَ النورسِ رفضتْ أن تؤمنَ بمجدِ الطيرانِ الذي ينتظرُها. رفضتْ أن تفتحَ عيونَها وترى.

تعلَّم كلَّ يومٍ أكثَرَ فأكثَرَ، تعلَّمَ أنَّ الغطسةَ الانسيابيةَ السريعةَ تستطيعُ أن تكشفَ له أمكنةَ الأسماكِ النادرةِ واللذيذةِ التي تستقرُّ على عُمْقِ عشرةِ أقدامٍ تحتَ سطحِ المحيطِ. لم يَعُدْ بحاجةٍ إلى قواربِ صيدٍ وخبزٍ بائتٍ ليعيشَ. تعلَّم أن ينامَ في الجوِّ، وتدَرَّبَ في الليلِ فوقَ الرياحِ البعيدةِ عن اليابسةِ، مُجتازاً مئاتِ الأميالِ من غُروبِ الشمسِ إلى شروقِها. وبالتحكُّمِ الداخليِ نفسِهِ طار عَبْرَ ضبابِ البحرِ الكثيفِ، وارتفعَ فوقَه في السماءِ الصافيةِ المتألِّقةِ...

في الوقتِ نفسِهِ الذي قضتْهُ طيورُ النورسِ الأُخرى واقفةً على الشاطِيء، جاهلةً كلَّ شيءٍ عدا المطرَ والطلَّ.

تعلم أن يمتطيَ الرياحَ العاليةَ فوقَ البرِّ ليتعشى بالحشراتِ الصغيرةِ.

لقد حصلَ على كل ما تمنَّاهُ لسِرْبِهِ مرةً، حَصَلَ عليه وحدَهُ فقد أتقنَ الطيرانَ، ولم يأسَفْ على الثمنِ الذي دفعَهُ من أجلِهِ. اكتشف أن المللَ والخوفَ والغضبَ هي ما يجعلُ حياةَ النورسِ قصيرةً. ومع زَوَالِ كلِّ هذه المؤثراتِ من تفكيرِهِ عاش حياةً طويلةً رائعةً حقاً.

أتيا في المساءِ ووَجَدا جوناثان وهو ينسابُ بسلامٍ وحيداً عَبْرَ

سمائِهِ المحبوبةِ. النورسانِ اللذانِ ظهرا قُرْبَ جناحَيه كانا نقيَّينِ كضوءِ النجومِ، وتوهُّجهُما كان لطيفاً ووديّاً في أجواءِ الليلِ. لكن أروعَ شيءٍ هو المهارةُ التي حلَّقا بها، وأطرافُ أجنحتِهما لا تكادُ تبتعدُ أكثَرَ من إنشٍ واحدٍ عن طرفي جناحيهِ.

ودون أيةِ كلمةٍ أخضعهُم جوناثان لامتحانِهِ الذي لم ينجحْ فيه أيُّ نورسٍ من قبلُ، لوى جناحيهِ وخفَّف سرعتَه إلى ميلٍ واحدٍ في الساعةِ، خفَّف الطائران المُشِعَّانِ من سرعتِهما معه بنعومةٍ وثباتٍ. لقد أتقنا الطيرانَ البطيَءَ.

طوى جناحيه وتدحرَجَ وسقَطَ في انقضاضةٍ سرعتها تسعون ميلاً في الساعةِ. سقطا معه في تشكيلٍ مُحْكَمٍ.

في النهايةِ حوَّلَ سرعتَهُ نحو الأعلى في دَحْرَجَةٍ بطيئةٍ رأسيةٍ طويلةٍ. تدحرجَا معه وهما يبتسمان. عادَ إلى مستوى تحليقِه وصمَتَ فترةً من الزمنِ قبل أن يقول: «حسناً، مَنْ أنتما؟» «نحنُ من سِرْبِكَ يا جوناثان، نحن أخوتُكَ أتينا حتى نأخذَكَ نحو الأعلى. حتى نعيدَكَ إلى موطنِكَ». كلماتُهما كانت قويةً وهادئةً.

«ليس لي موطنٌ، ليس لي سِرْبٌ، أنا منبوذٌ، ونحن نطيرُ الآن على قِمَّةِ جَبَلِ الريحِ العظيمِ، على ارتفاعِ بضعِ مئاتٍ من الأقدامِ فأنا لا أستطيعُ أن أرتفعَ بجسدي البالي إلى أعلى».

« بل تستطيع يا جوناثان ، لأنَّكَ تعلَّمتَ ، انتهت مدرسةٌ ، وحان الوقتُ لأن تبدأ أخرى » .

أدرك النورسُ جوناثان في هذه اللحظة قصدهما بذكائه الذي كان يَشُعُّ داخلَهُ خلالَ حياتِهِ . كانا على حقٍ . فباستطاعتِهِ أن يطيرَ على ارتفاعٍ أعلى . وقد حانَ وقتُ العودة إلى الوطنِ .

ألقى نظرةً أخرى عَبْرَ السماءِ وعَبْرَ الأرضِ العظيمةِ الفضيةِ التي تعلَّمَ فيها الكثيرَ . وأخيراً قال : « أنا مستعدٌ » .

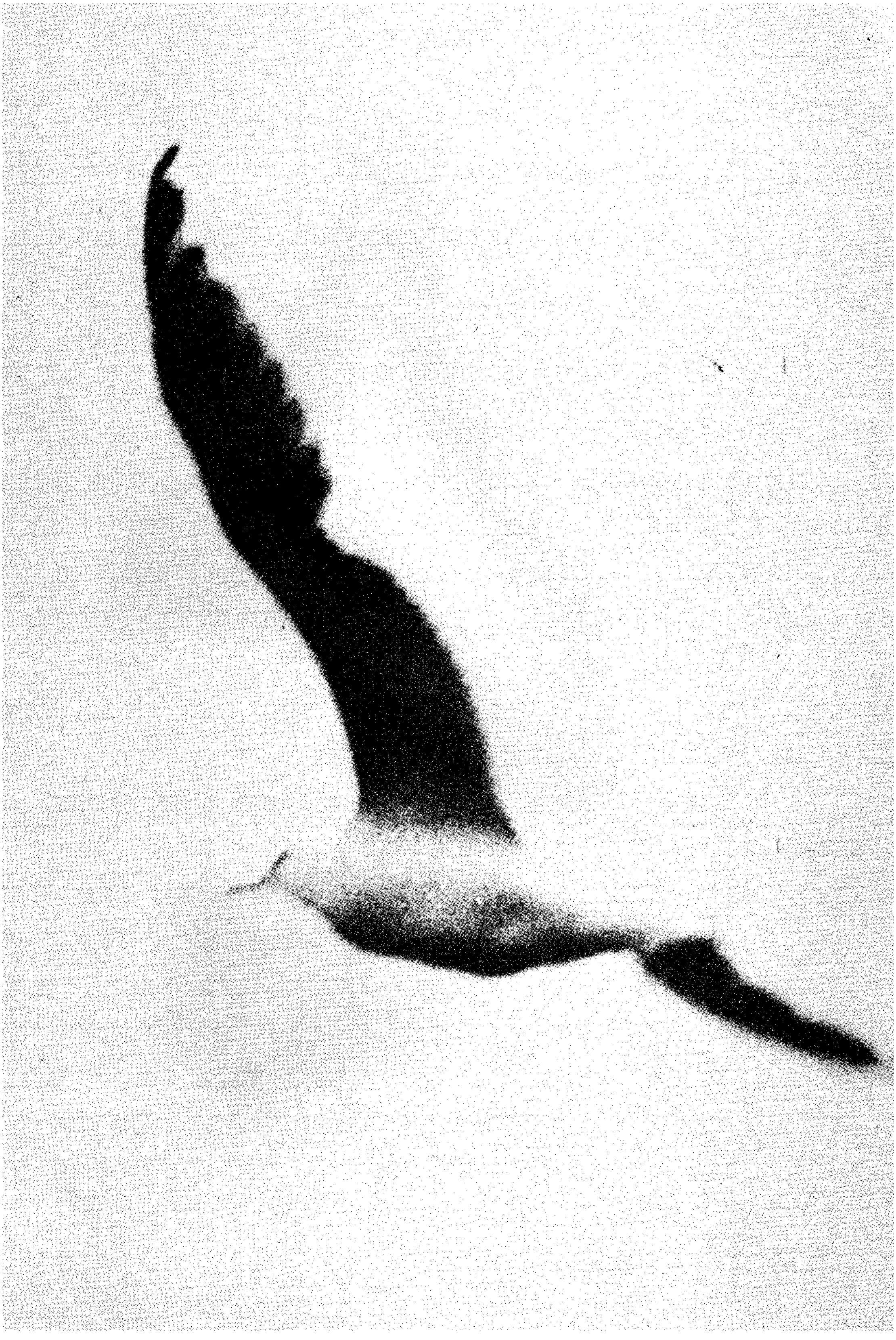
ثم ارتفعَ النورسُ جوناثان ليفينجستون مع النورسَيْنِ المُضيئينِ ليختفوا جميعاً في السماءِ الرائعةِ الداكنةِ .



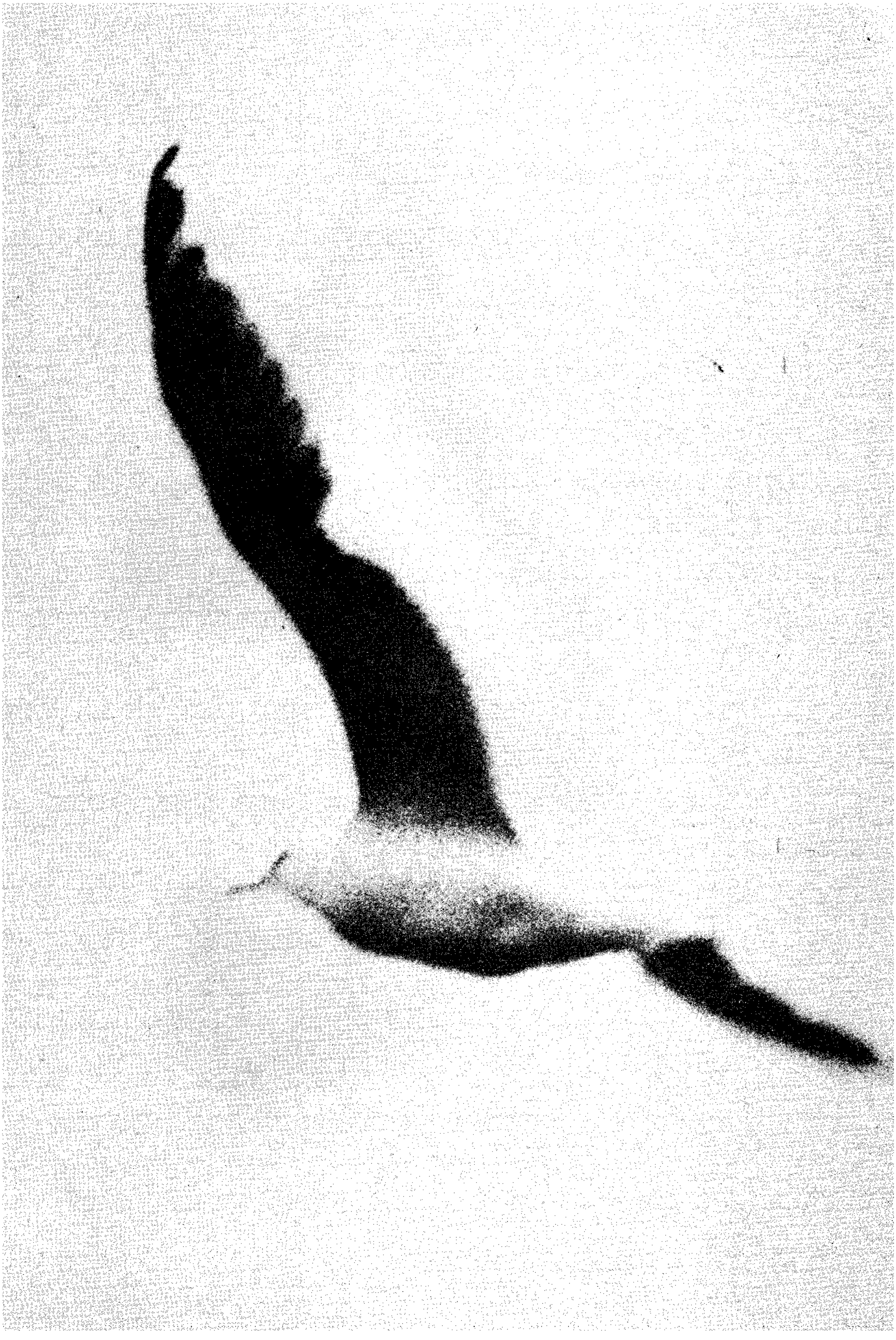








القسمُ الثاني

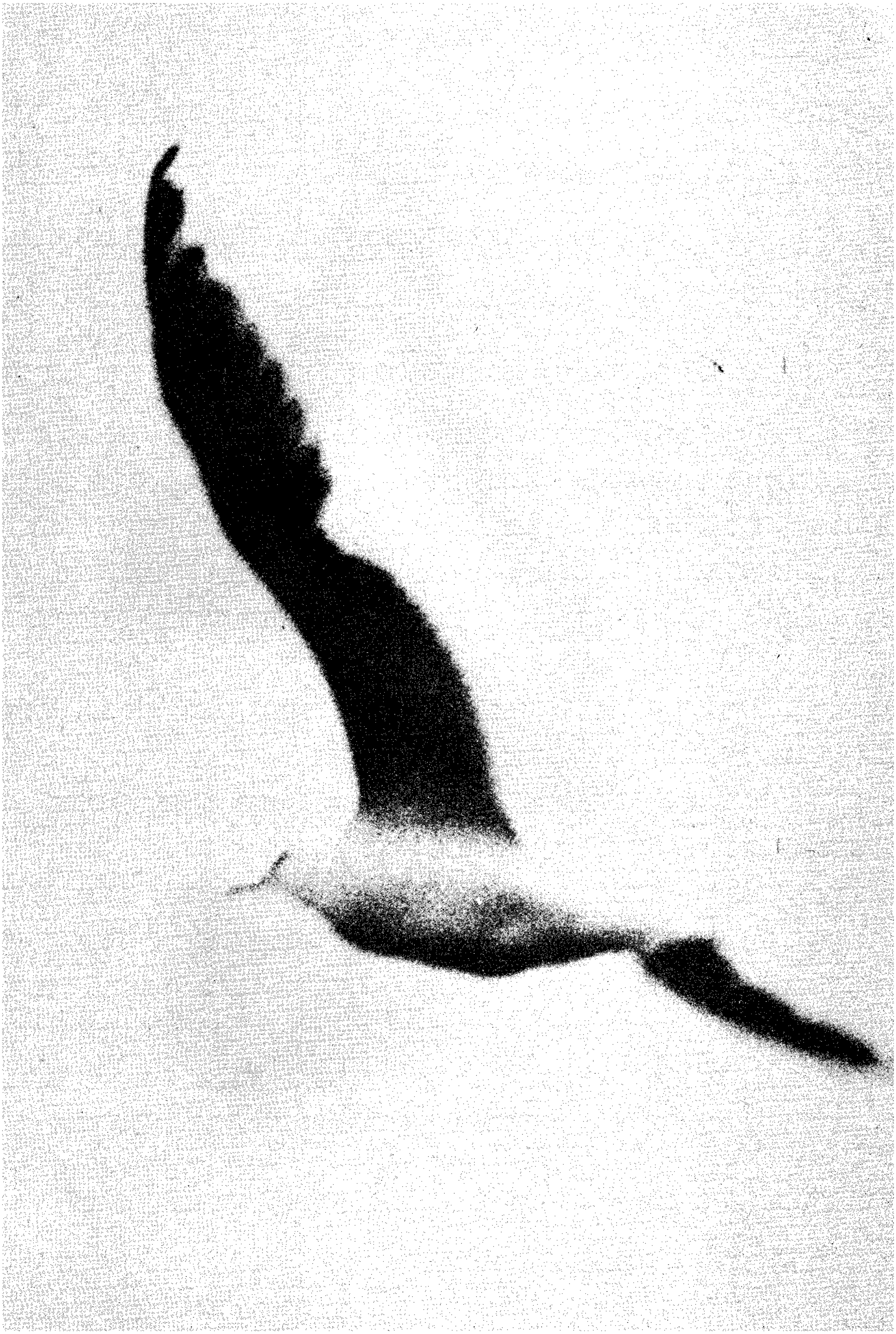














حدَّثَ نَفْسَه قائلاً : هذه هي السَّموات إذن . لا يليق أن يحلِّلَ المرءُ الفردوسَ في اللحظة التي يدخلُهُ . مِنَ اللحظةِ التي غادرَ فيها الأرضَ محلِّقاً فوقَ الغيومِ ، وبمرافقةِ النورسينِ المُشِعَّينِ ، لاحظ أنَّ جسمَهُ بدأ يَشِعُّ مثلَهما . حقاً لقد ظلَّ النورسُ جوناثان ليفينجسون حياً خلْفَ هاتين العينين المشعَّتين ، لكن شكلَهُ الخارجيَّ تغيَّرَ .

شعر أنَّ له جسْمَ نورسٍ يحلِّقُ بشكلٍ أفضل من جسمِهِ القديمِ . وفكَّرَ أنَّ بإمكانِهِ ، وبنصفِ الجَهْدِ الذي كان يبذلُهُ أنْ يقومَ بأداءٍ أفضلَ من أدائِهِ على الأرضِ وبضعفِ السُّرعَةِ !

تألَّقَ ريشُهُ ببياضٍ مشرقٍ وأصبحَ جناحاهُ أكثرَ نعومةً وكمالاً ، كصفحتين من الفضةِ اللامعةِ . وعندما وصَلَ إلى سرعةِ مئتين خمسين ميلاً في الساعةِ شعرَ بأنه يقتربُ من السُّرعةِ القُصوى لطيرانِهِ . وعند سرعةِ مئتين وثلاثةٍ وسبعين ميلاً حدَّثَ نفسَهُ أنه يطيرُ بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ . فخابَ أملُهُ قليلاً . هناك حَدٌّ لقدراتِ الجسمِ الجديدِ . وبرغم أنه

طارَ بسرعةٍ أكبرَ من تلك التي حققها في سجلِّ طيرانِهِ السابقِ، إلاّ أنَّ الحدَّ الذي يريدُ تحطيمَهُ. ما زال موجوداً، وفكَّر بأن الجنَّةَ يجب أن تخلُوَ من الحدودِ.

انقشعت الغيومُ ونادى حارِساه: «هبوطاً سعيداً يا جوناثان». ثم اختفيا في الجوِّ الرقيقِ.

طارَ فوقَ البحرِ نحو الشاطىء المسنَّنِ، فرأى بعضَ طُيورِ النَورسِ تمارسُ الغَطْسَ عندَ الصخورِ. وبعيداً في الشمالِ عندَ الأُفُقِ رأى أخرى تطيرُ. رؤىً جديدةٌ وأفكارٌ جديدةٌ وأسئلةٌ جديدةٌ. لِمَ أعدادُ النورسِ ضئيلةٌ؟ يجب أن يكونَ الفردوسُ مزدحماً بطيورِ النورسِ. لماذا أنا تَعِبٌ هكذا وفجأةً؟ يجبُ ألا يتعبَ النورسُ أو ينامَ في الجنةِ، أين سمع هذا؟ لقد تلاشتْ ذكرياتُ حياتِهِ على الأرضِ. الأرضُ كانتْ مكاناً تعلَّم فيه الكثيرَ طبعاً، لكن التفاصيلَ ضاعَتْ. ذكرى الصراعِ من أجلِ الطعامِ وذكرى كونِهِ منبوذاً.

أتتْ جموعُ النوارسِ من الشاطىء لتقابلَهُ دونَ أن تتفوَّهَ بكلمةٍ. شعرَ بأنَّه موضعُ ترحيبٍ، وأنَّ هذا هو موطِنُهُ. لقد كان يوماً عظيماً بالنسبة له، يوماً لا يذكرُ شروقَ شمسِهِ.

استدارَ ليهبطَ على الشاطىء خافقاً بجناحيه ليتوقفَ في الهواءِ، ثم ملقياً نفسَهُ بخفَّةٍ على الرمالِ. هبطتِ الطيورُ الأُخرى أيضاً دونَ أن تحرِّكَ

أجنحتَها. تأرجَحَتْ في الهواءِ ومَدَّتْ أجنحتَها البراقَةَ، ثم أحْنَتْها بطريقةٍ ما حتى توقفتْ في اللحظةِ نفسِها التي لامَسَتْ فيها أقدامُها اليابسَةَ.

كان تحكُّماً رائعاً، لكنَّ جوناثان أكثرُ تعباً من أن يحاوِلَ القيامَ به. وقفَ على الشاطيءِ ساكناً، صامتاً ثم غطَّ في النومِ.

رأى جوناثان في الأيام اللاحقةِ أن الوضعَ لا يختلفُ كثيراً عن حياته السابقةِ. فهنا أيضاً أمامَهُ الكثيرُ ليتعلَّمَهُ عن الطيرانِ. الاختلافُ الوحيدُ هو أن طيورَ النَوْرَسِ هنا تفكرُ مثلَهُ. كان همُّهُمُ الأكبرُ في الحياةِ أن يصلوا إلى الكمالِ في الطيرانِ الذي أحبُّوهُ. كانوا طيوراً رائعةً، كلُّهم يقضون أيامَهم ساعةً بعد ساعةٍ في التدرُّبِ على الطيرانِ واختبارِ ركوبِ الهواءِ المتقدِّم.

نسي جوناثان لفترة طويلة، العالم الذي أتى منه. ذلك المكانُ الذي عاشَ السِّرْبُ فيه دونَ أن يُبْصِرَ مباهجَ الطيرانِ، مُستعمِلاً أجنحتَهُ كوسيلةٍ لإيجادِ الطعامِ والصِّراعِ من أجلِهِ. لكنه بين الفينةِ والفينةِ كان يتذكَّرُ للحظةٍ.

وفي صباح أحدِ الأيامِ، بينما كان يستريحُ مع مُدَرِّبِهِ على الشاطىء بعدَ جولةٍ من التدحرُجِ الخاطِف مع طيِّ الأجنحةِ. سأل بعدما أَلِفَ المكانَ مستخدماً التخاطُبَ الفكريَ السَّهْلَ الذي تستعمِلُهُ طيورُ النَوْرَسِ هنا

بدلاً من الزعيقِ والصُراخِ: «أين الآخرون يا سوليفان، لِمَ لا يوجدُ هنا عددٌ أكبرُ منا؟ المكانُ الذي أتيت منه يحوي...».

هزَّ سوليفان رأسَهُ وتابعَ: «آلافاً من طيورِ النورسِ. أعْلَمُ هذا. والجوابُ الوحيدُ يا جوناثان هو أنَّك طائرٌ فريدٌ جداً مُعظمُنا جاءَ إلى هنا ببطءٍ شديدٍ. لقد انتقلنا من عالمٍ إلى عالمٍ مشابهٍ آخرَ. ناسين مباشرةً المكانَ الذي أتينا منه، غيرَ آبهين بوجهتِنا. كنا نعيشُ ليومِنا فقط. هل لديك أدنى فكرةٍ عن عددِ الحيواتِ التي عشناها قبلَ أنْ ندركَ أنَّ في الحياةِ ما هو أكثَر من الأكلِ، أو الشِّجارِ، أو السلطة في السِّرْبِ؟ ألفُ حياةٍ ياجون، عشرةُ آلافٍ وبعدها مئة حياةٍ، حتى بدأنا نتعلَّمَ أن هناكَ شيئاً يُدعى الكمالُ، ومئةٌ أخرى لنفكِّرَ بأنَّ هدفَنا في الحياةِ هو أنْ نجِدَ الكمالَ ونظهرَهُ.

القانون نفسُهُ ما زال سارياً علينا الآن طبعاً. نحن نختارُ عالَمَنا الآتيَ عبرَ ما نتعلَّمُهُ في هذا العالَمِ. إنْ لم تتعلمْ شيئاً يكونُ عالمُكَ التالي مماثلاً لهذا بكل قيودِهِ وكلِّ المصاعِبِ التي يجب قهرَها».

مدَّ جناحيهِ واستدارَ مواجهاً الريحَ ثم قالَ: «لكن أنتَ ياجون تعلمتَ الكثيرَ في حياةٍ واحدةٍ. ولم تضطرْ أن تحيا ألفَ حياةٍ حتى تصلَ إلى هُنا».

وخلالَ لحظةٍ عادا إلى الطيرانِ والتدريبِ. تشكيلُ التدحرجاتِ

المدببةِ صعبٌ . كان على جوناثان خلالَ النصفِ المقلوبِ من الحركةِ أن يفكِرَ رأساً على عقبٍ في قَلْبِ تقوُّسِ جناحيهِ في انسجامٍ تامٍ مع معلِّمِهِ .

كرَّرَ سوليفان مرةً تِلْوَ الأُخرى «لنحاولْ مرةً ثانيةً ، لنحاولْ مرةً ثانيةً» وأخيراً قالَ : «جيِّدٌ» عندها بدأا في التدرُّبِ على الحركاتِ الانقلابيةِ الخارجيةِ .

في إحدى الأُمسياتِ التي لم تكنْ مخصصةً للطيرانِ الليلي ، وقفتْ طيورُ النورسِ مجتمعةً ومفكرةً على الرمالِ . استجمعَ جوناثانُ شجاعتَهُ واتجه نحوَ النورسِ الهَرِمِ الذي قيلَ إنه على وشكِ الانتقالِ إلى ما وراءِ هذا العالِمِ .

قال بتوترٍ بسيطٍ : «شيانغ ..» نظر إليه النورسُ العجوزُ بلطفٍ «نعم يا بني ؟» . لم تكنْ السُنُّ قد أضعفتْ العجوزَ بقدر ما منحتهُ من القوةِ . كان باستطاعته أن يتفوقَ في الطيرانِ على أيِّ نورسٍ في السِّربِ ، فقد تعلَّم مهاراتٍ ما زالَ الآخرون يكتنسبُونها تدريجياً .

«هذا العالَمُ ليس الجنةَ يا شيانغ . أليس كذلك ؟» .

ابتسمَ العجوزُ تحتَ ضوءِ القَمرِ وقالَ : «ها أنت ذا تتعلمُ المزيدَ أيها النورسُ جوناثان» .

« حسناً ، ما الذي سيحدُثُ بعدَ هذا ؟ إلى أين سنذهبُ ؟ ألا يوجدُ فِرْدَوْسٌ ؟ » .

كلا يا جوناثان ، لا يوجد هكذا مكانٌ . إنَّ الفردوسَ ليس مكاناً أو زماناً . الفردوسُ هو حالةٌ من الكمالِ » . صمتَ للحظةٍ ثم تابع « أنت تطيرُ بسرعةٍ ، أليس كذلك ؟ » .

« أنا . . . أنا أستمتِعُ بالسرعةِ » قال جوناثـان مُتَراجعـاً ، ولكـن مفتخراً لأن العجوزَ قد لاحظَ .

« ستبدأ بِتَلَمُّسِ الجنةِ يا جوناثان في اللحظةِ التي تلمَسُ فيها السُّرْعَة المثالية . وهي ليستْ بأن تطيرَ ألفَ ميلٍ في الساعةِ ولا مليون ولا حتى بسرعةِ الضوءِ ، لأن أيَّ رقمٍ هو حَدٌ ، والكمالُ ليس له حدودٌ . السرعةُ المثاليةُ يا بني هي أن تكونَ هناكَ » .

ودون سابِقِ إنذارٍ اختفى شيانغ وظهرَ على حافَّةِ الماءِ على بعدِ خمسين قدماً في لمحةِ بَصَرٍ . ثم اختفى ووقفَ في جزءٍ من الألف من الثانية على كتِفِ جوناثان قائلاً : « إنها تضفي شيئاً من المتعةِ » .

وقف جوناثان مبهوراً ، ونسي أن يسأَلَ عن الجَنَّةَ « كيف تفعلُ هذا ؟ كيف تشعرُ وأنتَ تقومُ به ؟ كم تستطيعُ أن تبتعدَ ؟ » .

قال العجوز : « تستطيع أن تذهب إلى أي مكانٍ أو زمانٍ تتمنى

الذهابَ إليهِ. لقد ذهبتُ إلى كلِّ مكانٍ وكلِّ زمانٍ أستطيعُ أن أفكرَ فيه».

نظرَ عَبْرَ البحر متابعاً: «هذا غريبٌ، طيورُ النورسِ التي تحتقرُ الكمال وتطيرُ من أجْلِ التنقُّلِ لا تصلُ إلى أيِّ مكانٍ وببطءٍ. أما أولئكَ الذين يتركون التنقلَ من أجلِ الكمالِ فيذهبون إلى كلِّ مكانٍ وبلحظةٍ. تذكَّرْ يا جوناثان أن الفردوسَ ليس مكاناً أو زماناً، لأنَّ المكانَ والزمانَ خاليان من أيِّ معنىً بينما الفردوس...».

«هل تستطيع أن تعلِّمَني كيف أطيرُ هكذا؟» ارتجَفَ النورسُ جوناثان لِطَرْقِهِ موضوعاً آخرَ مجهولاً.

«طبعاً، إذا أردتَ أن تتعلَّمَ».

«أريدُ. متى أستطيع أن أبدأ؟».

قال جوناثان بينما لمعت عيناهُ ببريقٍ غريبٍ: «أريدُ أن أتعلَّمَ الطيرانَ بهذه الطريقةِ، قل لي ما عليَّ أن أفعلَ».

تحدثَ شيانغ ببطءٍ مراقباً النورسَ الصغيرَ بحرصٍ شديدٍ «تريدُ أن تتعلَّمَ كيف تطيرُ بسرعةِ التفكيرِ. عليك أن تعرفَ أولاً أنك قد وَصَلْتَ...».

والخِدْعةُ حسبما قال شيانغ هي أن يتوقفَ جوناثان عنِ رؤيةِ نفسِهِ







مسجوناً داخلَ جَسَدٍ محدودٍ يمتدُّ جناحاه على طولِ اثنين وأربعين إنشاً، ويقدِّم أداءً يمكن أن يُخَطَّ في رسمٍ بيانيٍ. الخدعةُ هي أن يعرِفَ أنَّ طبيعتَهُ الحقيقيةَ المثاليةَ تكمُنُ كرقمٍ غيرِ مكتوبٍ في كلِّ مكانٍ، في كلِّ فراغٍ، وفي كلِّ وقتٍ.

ثابر جوناثان بتصميمٍ يوماً بعد يومٍ من قَبْلِ شروقِ الشمسِ إلى ما بعدَ منتصفِ الليلِ، ورُغمَ هذه الجهودِ لم يتحرَّكَ من مكانِهِ.

أعادَ شيانغ على مسامعه: «انسَ الإيمان فأنتَ لم تحتَجْهُ من أجل الطيرانِ. لم تكنْ بحاجةٍ إلى فهْمِ الطيرانِ، وهذا هو الشيُء نفسُهُ. حاول مرةً أخرى الآنَ.

وفي أحدِ الأيامِ وبينما كان جوناثان واقفاً على الشاطِيء مغمِضاً عينَيهِ ومركِّزاً، عَرَفَ في لمحةٍ ما كان شيانغ يردِّدُ على مسامِعِهِ: «هذا صحيح! أنا نورسٌ كاملٌ وغيرُ مقيدٍ» شَعَرَ بِهزَّةٍ شديدةٍ من المِتعَةِ.

قال شيانغ بنبرةِ انتصار: «حسناً!»

عندما فَتح جوناثان عينيه كان يقفُ وحيداً مع العجوزِ على شاطِيء بحرٍ مختلفٍ تماماً.الأشجارُ ممتدَّةٌ على حافَّةِ الماءِ بينما سَطَعَ توأمانِ شمسيانِ أصفرانِ في السماءِ. قال شيانغ: «وأخيراً فهمت المقصودَ، لكن عليكَ أن تُحَسِّنَ من قُدرتك على التحكُّمِ».

سأل جوناثان مذهولاً «أين نحنُ الآن؟».

ودون أن يبديَ أيَّ تأثرٍ بالمحيطِ الغريبِ، أجاب النورسُ المُسِنُّ قائلاً: كما هو واضحٌ، نحنُ على كوكبٍ سماؤُه خضراءُ، وله نجمانِ شمسيانِ».

زعَقَ جوناثان مبتهجاً، ولأوَّلِ مَرَّةٍ مُذْ غادَرَ الأرضَ: «لقد نجحتُ!» «طبعاً، لقد نجحتَ طبعاً يا جون، إننا ننجحُ دائماً عندما ندركُ ما نقومُ بهِ. أما الآن فالمسألةُ تخصُّ تحكُّمَكَ..».

كان الظلامُ قد حَلَّ عندما عادا. نظرتْ طيورُ النَوْرَسِ إلى جوناثان والرُّعْبُ يُطِلُّ من عيونِها الذهبيةِ لأنها رأَتْهُ وهو يختفي من المكانِ الذي تشبَّثَ به فترةً من الزمنِ.

استمع إلى تهنئاتهم لأقلَّ من دقيقةٍ «أنا القادِمُ الجديدُ إلى هنا! ما زلتُ في البدايةِ! ومن المفروضِ أن أتعلَّمَ منكم».

قال سوليفان وهو واقفٌ إلى جوارِهِ: «أشكُّ في هذا يا جون، فأنت أكثرُ جرأةً في طَلَبِ العِلْمِ من أيِّ نورَسٍ قابلته خلالَ عشْرَةِ آلافِ سنةٍ». خيَّمَ السكونُ على السِّرْبِ بينما تململ جوناثانُ من الإحراجِ.

قال شيانغ: «إذا شئتَ نبدأُ بالانتقالِ عَبْرَ الزَمَنِ حتى تتمكن من الطيرانِ إلى الماضي والمستقبلِ. وعندها تصبِحُ مستعداً لتبدأ ما هو

أكثرُ صعوبةً وفعاليةً ومتعةً. سوف تستعِدُّ لتبدأَ الطيرانَ عالياً، ولتعرفَ معنى الجُودِ في الحُبِّ».

مضى شهرٌ أو ما بدا شهراً، وبدأ جوناثان يتعلَّمُ بسرعةٍ كبيرةٍ. أثبتتِ التجربةُ العاديةُ أنه سريعُ التعلُّمِ. والآنَ تقبَّلَ تلميذُ العجوزِ المميَّزُ أفكاراً جديدةً كحاسِبٍ مُغطىً بالريشِ. ثم أتى اليومُ الذي اختفى فيه شيانغ.

كان يتحدثُ معهُمْ جميعاً بهدوءٍ حاضّاً إياهم على متابعةِ تعلُّمِهِمْ وتَدَرُّبِهِمْ وكفاحِهِم، من أجلْ معرفةِ المزيدِ عن مبدأ الاختفاءِ الأمثلِ في الحياةِ. وبينما هو يتكلَّمُ أخذ ريشُهُ يزدادُ إشراقاً حتى أصبحَ متألقاً لدرجةٍ منعتْ طيورَ النورسِ من النظرِ إليه.

وكانت آخر كلماتِهِ: «ثابر يا جوناثان على تعلُّمِ الحُبِّ».

عندما استعادوا قُدْرَتَهمْ على الإبصارِ، كان شيانغ قد ذهبَ. ومعَ مرورِ الأيامِ ألفى جوناثان نفسَهُ يفكِّرُ مراراً بالأرضِ التي أتى منها، لو عَرَفَ فيها عُشْراً، أو حتى جزءاً من مئةٍ مما عرفَهُ هنا لكانتْ أكثَر معنىً! وَقَفَ على الرمالِ وتساءَلَ إن كان هناك نورسٌ آخرُ يجاهدُ ليحطِّمَ حدودَهُ، ويُبْصِرَ معنىً للطيران، أبْعَدَ من كونِهِ وسيلةَ تَنَقُّلٍ للحصولِ على فُتاتِ الخُبْزِ من قاربِ تجديفٍ. ربما كان هناك نورسٌ منبوذٌ لأنه واجَه السِّرْبَ بالحقيقةَ. وكلما تمرَّنَ جوناثانُ على الجودِ واللُّطْفِ وكلما

ثابَرَ على اكتشافِ طبيعةِ الحبِّ، ازداد شوقُهُ للعودةِ إلى الأرضِ. فقد خُلقَ ليكونَ مُعلِّماً ومُرْشداً، برُغْمِ العُزْلةِ التي عاشها سابقاً. طريقتُهُ الشخصيةُ في توضيح الحب وإظهارِهِ تكمن في كَشْفِهِ شيئاً من الحقيقة التي عَرِفَها إلى نورسٍ يتوقُ إلى فرصةِ رؤيتها بنفسِهِ.

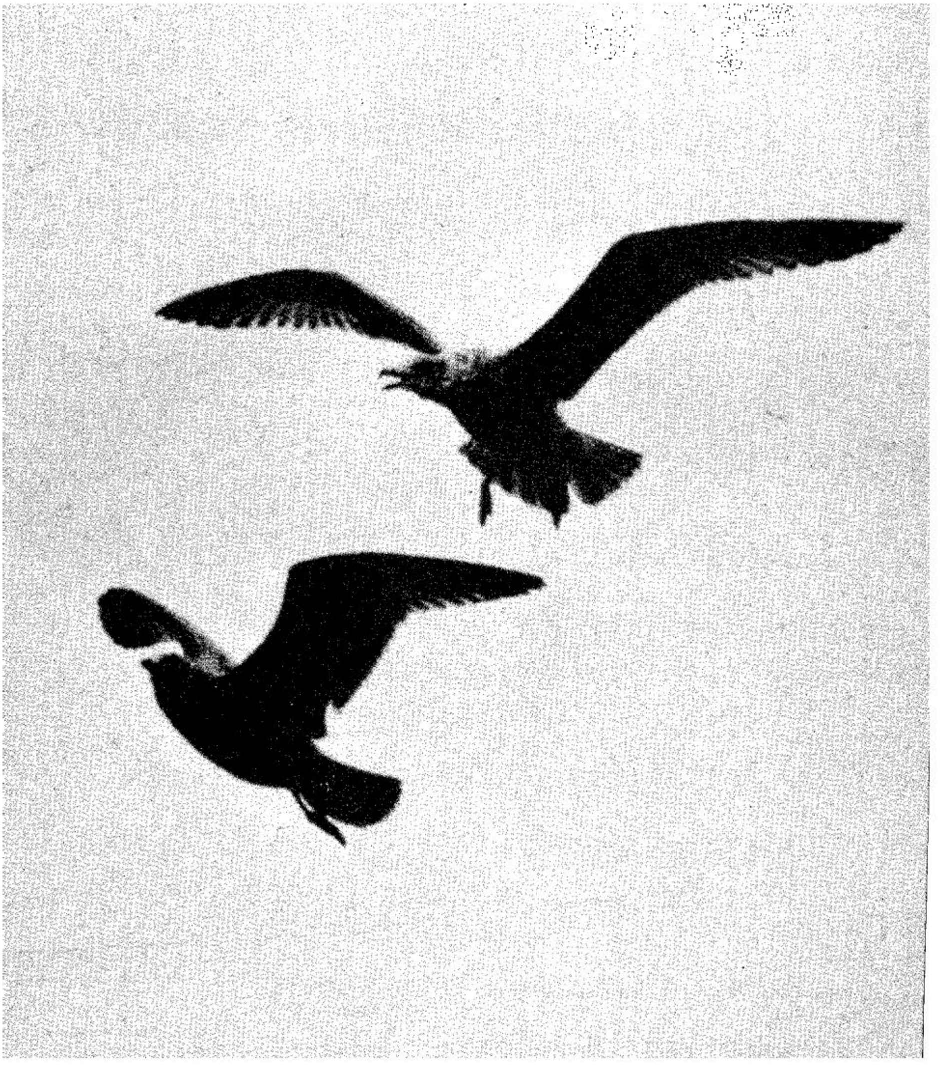
تملَّكَ الشَّكُّ سوليفان الذي كان مُتَضَلِّعاً بالطيرانِ بِسُرْعَةِ التفكيرِ، وهو يساعِدُ الآخرينَ على تعلُّمِها.

« جون لقد نبذوك يوماً، فلماذا تظنُّ أنَّ أياً من طيورِ النَّوْرَسِ الذين عرفتَهُمْ سيستمعُ لك الآنَ؟ أنت تعرِفُ المَثَلَ القائِلَ: النورسُ الذي يطيرُ عالياً يُبْصِرُ بعيداً.

طيورُ النورسِ في المكانِ الذي عِشْتَ فيه تقفُ على اليابسةِ تتصايحُ وتتصارَعُ فيما بينَها.

إنهم بعيدون آلافَ الأميالِ عن الجنَّةِ، وتُريدُ أن تُرِيَهُمُ الجنةَ من المكانِ الذي يقفونَ فيهِ. إنهم لا يرَون حتى رؤوسَ أجنحتِهِمْ يا جون! ابقَ هنا وساعدْ طيورَ النورسِ الجديدةِ التي ستتمكنُ من فَهْمِ مقاصِدكَ» صمت للحظة، ومن ثم قال: « ماذا كانَ سيحِلُّ بكَ لو أن شيانغ عاد إلى عوالِمِهِ القديمةِ؟».

كان سوليفان مُحقاً، والنقطةُ الأخيرةُ هي النقطةُ الحاسِمةُ. النورسُ الذي يطيرُ عالياً يبصرُ بعيداً.





بقي جوناثانُ وساعدَ الطيورَ القادمةَ حديثاً على التعلُّمِ. لقد كانوا أذكياءَ سريعين في استيعابِ دُروسِهِمْ. لكن إحساسَهُ القديمَ عاوَدَهُ. فلا بدَّ من وجودِ نورسٍ أو نورسينِ قادرينِ على التعلُّمِ في الأرضِ أيضاً. وفكرَ: كم كان سيعرفُ أكثرَ لو أنَّ شيانغ زاره على الأرضِ في اليوم الذي نُفي فيه. وأخيراً قالَ: «عليَّ أن أذهبَ يا سالي، طلابُك يُحسِنونَ الأداءَ وسيساعدونَكَ على تعليمِ القادمينَ الجُدُد».

تنهد سوليفانُ، لم يناقِشْ ثم قالَ: «أظنُّ أنني سأفقِدُكَ يا جوناثانُ».

ردَّ جوناثان قائلاً: «يا لَلْعَارِ يا سوليفانُ لا تكن سخيفاً! ما الذي نحاولُ أن نتدرَّبَ عليه كلَّ يومٍ؟ إنَّ صداقَتَنا لا تعتمِدُ على الزمَنِ والمَدَى، وإلا لَحَطَّمْنا أُخوَّتنا في تغلُّبِنا عليها. تغلَّب على الوقتِ، وكلُّ ما يبقى لنا هو الحاضر.

ألا تظنُّ أنَّ في إمكانِنا أن نلتقيَ مرةً أو مرتين في قلبِ هنا. والآن؟

ضحك النورسُ سوليفانُ رُغماً عنه وقال بلُطْفٍ: «أيها الطائرُ المجنونُ، النورسُ جوناثان ليفينجستون هو الوحيدُ الذي يستطيعُ أنْ يُعلِّمَ شخصاً على الأرضِ كيف يَرَى شيئاً على بعدِ ألِف ميلٍ». نظر إلى الرمالِ وتابَعَ: «وداعاً يا صديقي جون». «وداعاً يا سالي وإلى اللقاءِ».

وبهذا حفِظَ جوناثان في ذاكرتِهِ صورةَ سِرْبٍ ضخمٍ من طيورِ النورسِ على الشاطىءِ الآخر للوقت. وأدرك براحةٍ مألوفةٍ أنه ليس ريشاً وعظاماً بل فكرةٌ مُثْلَى عن الحريةِ والطيرانِ لا يحدُّها شيٌء.

عَرَفَ النورسُ فليتشر لايند برُغمِ كونه شاباً يافعاً أنه لم يسبِقْ له أن لَقِيَ أيُّ نورسٍ معاملةً أكثرَ قسوةً أو جُوراً في سِرْبِهِ.

اضطربتْ رؤيتُه وهو يطيرُ نحو الصخورِ البعيدةِ مُفَكِّراً بشراسةٍ: «لا يَهمُني ما يقولون، فالطيرانُ أكثرُ من مجرَّدِ رَفْرَفَةٍ من مكانٍ لمكانٍ، الناموسُ يقومُ بهذا، حركةٌ بهلوانيةٌ أمامَ كبيرِ السِّرْبِ تحوِّلُني إلى طائرٍ منبوذٍ، ألا يبصرونَ؟ ألا يفكرونَ بالمجدِ الذي سنحقِقُه لو تعلَّمنا الطيرانَ على حقيقتِهِ؟

لا تهمُّني ظنونُهم، سأريهِمُ ما هو الطيرانُ! سأكونُ خارجاً عن القانونِ دونَ ذنبٍ، إن كان هذا ما يريدون وسأجعلُهُم يندمونَ...».

صَدَرَ الصوتُ من داخلِ رأسِهِ، وبرُغمِ كونِهِ لطيفاً إلاّ أن النورسَ فَزِعَ فتردَّدَ وتعثَّرَ في الجوِّ.

لا تقسُ عليهم أيها النورس فليتشر، لقد أساؤوا لأنفسِهِم بنفيك بعيداً، ويوماً ما سيعرفون هذا، ويوماً ما سيرون ما تراهُ. سامِحْهُمْ وساعِدْهُمْ على أن يفهَمُوا».

على بُعْدِ إنشٍ واحدٍ من جناحِهِ الأيمنِ طارَ أكثرُ نورسٍ تألُّقاً

وبياضاً على الإطلاق، منساباً باسترخاءٍ، دون تحريك ريشِهِ، وبسرعةِ فليتشرْ القُصْوى نفسِها.

ارتبكَ الطائرُ الشابُ لحظةً.

«ما الذي يحدُثُ؟ هل أنا مجنون؟ هل أنا ميِّتٌ؟ ما هذا؟».

عاد الصوت هادئاً ومنخفضاً ومطالباً بالإجابةِ. «هل تريدُ أن تتعلَّمَ الطيرانَ أيها النورسُ فليتشر لايند؟».

«نعم أريدُ أن أطيرَ!».

«أيها النورسُ فليتشر لايند هل ترغبُ في تعلُّمِ الطيرانِ إلى الدرجةِ التي تسامِحُ فيها السِّرْبَ وتتعلَّمُ لتعودَ إليهم يوماً ما وتساعِدْهُمْ؟».

ومهما بلغ استياءُ النورسِ فليتشر وكبرياؤه. إلا أنه لن يتمكَّن من الكَذِبِ على هذا الكائنِ الرائعِ الماهِرِ. أجابَ بنعومةٍ: «نعم».

قال المخلوقُ المضيُء وبلُطْفٍ: «حسناً يا فليتشر فلنبدأ بتعلُّمِ الطيرانِ المستوي...».









القسمُ الثالثُ





دار جوناثانُ ببطءٍ فوقَ الصخورِ البعيدةِ مُراقِباً. كان النورسُ الشابُّ الصَّلْبُ فليتشر تلميذاً مثالياً، فهو قويٌّ وخفيفٌ، وسريعٌ في الجوِّ، بالإضافةِ إلى اندفاعِهِ المتَّقِدِ لِتَعَلُّمِ الطيرانِ.

ها هو ذا يَظهَرُ في هذه اللحظةِ شكلاً رمادياً مُبْهَماً هادِراً في أثناءِ عودتِهِ من انقضاضَةٍ، مخترقاً مئةً وخمسينَ ميلاً في الساعةِ ومتجاوزاً مُدَرِّبَهُ كوَمْضَةٍ مُضيئةٍ. تحوَّلَ فجأةً إلى تجربةٍ أخرى لدحرجةٍ رأسيةٍ بطيئةٍ بسِتَ عشرةَ نُقطةً.

بدأ بِعدِّ النقاطِ بصوتٍ عالٍ: «ثمانيةُ.. تسعةُ..عشرةُ.. أترى يا جوناثان بدأتُ أفقدُ سُرعتي في الهواءِ.. أحد عشر.. أريد أن أبرَعَ في التوقفِ الدقيقِ مثلِكَ.. اثنا عشر.. لكنني لا أتمكنُ من متابعةِ.. ثلاثةَ عشر.. هذه النقاط الثلاثةُ الأخيرةُ.. دون..أربعةَ عشَر ..أخ!».

تَوَقُّفُهُ المرتَعِشِ في الأعلى زادَ من سوءِ غَضَبِهِ وهَيَجَانِهِ في أثناءِ سقوطِهِ. سقطَ نحوَ الوراءِ مُتَقَلِّباً ومُرْتَطِماً بعُنْفٍ في دورةٍ معكوسةٍ.

وأخيراً استعادَ توازنَهُ لاهِثاً على ارتفاعٍ يقِلُّ بمئةِ قدمٍ عن ارتفاعِ مُدَرِّبِهِ .

أنت تضيِّعُ وقتَكَ معي يا جوناثان ! « أنا أخْرَقُ ! أنا غبيٌّ جداً ! أحاوِلُ لكنني لا أنجحُ ! » .

نظرَ جوناثانُ إليه في الأسفلِ وهزَّ رأسَهُ « لن تتمكنَ من النجاحِ ما دمْتَ ترتَدُّ بعنفٍ نحو الأعلى ! لقد فقدتَ يا فليتشر أربعين ميلاً في الساعةِ بهذا الدخولِ ! عليك أن تكون ليِّناً ! تذكَّرْ : ثابتاً ولكنْ بلينٍ » .

هبط حتى حاذى النورسَ الصغيرَ « لنحاول أن نبدأ بالتشكيل سوياً الآن ، وانتبِه لكي يكونَ الارتدادُ ليناً والبدايةُ سهلةً » .

ومع نهايةِ الشهورِ الثلاثةِ أصبحَ لجوناثان ستَّةُ طلابٍ وكلُّهُم منبوذونَ ومتحمسونَ لمعرفةِ غرائبِ الطيرانِ وأفكارِهِ الجديدةِ من أجلِ التمتُّعِ به . ومع ذلك كان من الأسهلِ عليهم أن يتمرَّنوا على الأداءِ الراقي من أن يفهموا المغزَى الكامنَ وراءَهُ .

وكثيراً ما ردَّدَ جوناثانُ على الشاطىء : « في الواقعِ كلُّ واحدٍ منا صورةٌ ذهنيةٌ عن النورسِ العظيمِ . صورةٌ غيرُ محدودةٍ عن الحريةِ . إن الطيرانَ المحكَمَ هو خطوةٌ نحو تعبيرٍ أفضلَ عن طبيعتِنا . علينا أن نتخلَّى عن كلِّ ما يقيدُنا . ولذلك نتمرَّن على السُّرعةِ الشديدةِ والسُّرعةِ البطيئةِ والطيرانِ البهلوانيِّ » .

ويغفو طلابُه مرهقين من الطيرانِ طَوَالَ اليومِ. أَحَبُّوا التمرينَ لأنه كان سريعاً ومثيراً. وقد أشبعَ عَطَشَهُمُ للعِلْمِ الذي يزدادُ مع كلِّ دَرْسٍ، لكن لم يؤمِنْ ولا واحدٌ منهم ولا حتى النورسُ فليتشر بأن الطيرانَ الفكريَّ يمكن أن يكونَ حقيقياً كطيرانِ الرِّياحِ والريشِ.

ويقولُ أحياناً أخرى: «جسمكم من الجناحِ إلى الجناحِ هو فكرُكُمْ بذاتِهِ مُتَجَسِّداً في شكلٍ تُمكنُ رؤيتُه. اكسِروا قيودَ فكرِكُمْ تتحرروا من قيودِ جَسَدِكُم»..

ومهما اختلفتْ تعابيرُهُ اللفظيةُ فإنَّ ما يقولُهُ يظلُّ قصةً خياليةً ممتعةً تدفعُهم إلى النومِ. وبعد شهرٍ واحدٍ أعلن جوناثانُ أن العودةَ إلى السِّرْبِ قد حان وقتُها.

قال النورسُ هنري كالفين: «لسنا مستعدين ولن يرحبوا بنا، فما زلنا منبوذين! لا نستطيع أن نذهَبَ إلى مكانٍ طُرِدْنا منه».

أجابَ جوناثانُ: «نحن أحرارٌ في أن نذهَبَ حيثُ نُريدُ ونكونَ من نشاءُ». ثم طارَ من على الرمالِ شرْقاً نحو ديارِ السِّرْبِ.

ساد ضِيقٌ وجيزٌ بين الطلابِ لأنَّ قانونَ السِّرْبِ يمنعُ المنبوذينَ من العودَةِ، وهي شريعةٌ لم يخالفْها أحدٌ من ألفِ سنةٍ.

القانونُ قالَ: ابقوا، وجوناثان قال: اذهبوا، وطار مبتعِداًفوقَ الماءِ. وكان سيصلُ إلى السِّرْبِ المعاديِ وحدَهُ لو أنهم انتظروا أكثرَ.

قال فليتشر بحياءٍ: «حسناً، ليس مفروضاً علينا أن نطيعَ القانونَ ما دُمنا لا ننتمي إلى السِّرْبِ أليس كذلك؟ بالإضافةِ إلى أننا سنكونُ أكثرَ فائدةً هناكَ لو حَدَثَ أيُّ عِراكٍ».

وهكذا طاروا من الغربِ في ذلك الصباحِ، ثمانيةُ طيورٍ في تشكيلةِ معينٍ مُزْدَوَجٍ، بينما تكادُ رؤوسُ أجنحتِهم تلتحِمُ.

عَبَروا شاطئَ مجلسِ السِّرْبِ بسرعةِ مئةٍ وخمسةٍ وثلاثين ميلاً في الساعة. جوناثان في المقدِّمةِ، بينما يطيرُ فليتشرُ بسهولةٍ قُرْبَ جناحِهِ الأيمنِ، ويعبثُ كالفين متصنِّعاً العِراكَ قُرْبَ جناحِهِ الأيسرِ. تدحرجتِ التشكيلةُ ببطءٍ نحو اليمين كطائرٍ واحدٍ وعصفتِ الريحُ بهم جميعاً.

انقطع الزعيقُ والصياحُ المعتادُ للسِّرْبِ، وحدَّقت أعينُ ثمانيةِ آلافِ نورسٍ دون أن تطرَفَ.

تدحرجتْ طيورُ النورسِ الثمانيةُ دحرجةً انقلابيةً حادةً وحلَّقَتْ في أرجاءِ المكانِ، حتى توقفتْ تماماً، وهبطتْ على الشاطئِ. وكما لو أن هذا حدَثٌ عاديٌّ يتكررُ كلَّ يومٍ، بدأ النورسُ جوناثانُ بإلقاءِ بحثِهِ التحليليِّ عنِ الطيرانِ.

قال مُبتسِماً ابتسامةً مُلتويةً: «أبدأُ بقولي إنكم جميعاً تأخَّرتم في الانضمام إلينا...».

كان لكلامِهِ وقعُ الصاعِقَةِ فهؤلاء كلُّهُم منفيونَ، وعودتُهم تعتبرُ

غيرَ معقولةٍ. لقد تبددتْ تنبؤاتُ فليتشر بحدوثِ عراكٍ أمامَ ارتباكِ السِّرْبِ.

قالت مجموعةٌ من النوارسِ الشابةِ: «أينَ تعلَّمَ أولئك المنبوذون أن يطيروا هكذا؟».

مضتْ ساعةٌ قبلَ أن تصلَ كلماتُ النورسِ الأكبرِ سناً إلى السِّرْبِ. «تجاهلوهم، فالنورسُ الذي يتحدثُ إلى منبوذٍ يصبحُ منبوذاً، والنورسُ الذي ينظرُ إلى منبوذٍ يخالفُ قانونَ السِّرْبِ». وابتداءً من هذه اللحظةِ أدار أفرادُ السِّرْبِ ظهورَهم لجوناثان، ولم يبْدُ عليه أنه أعارَهُم أيَّ اهتمامٍ. عقد جلساتِه التدريبيةَ مباشرةً فوق شاطيءِ المجلسِ، وبدأ لأولِ مرةٍ بالضغطِ على طلابِهِ ليستخدِموا الحدودَ القُصوى لقُدْرَاتِهم.

صرخَ عبرَ البحر: «أيها النورسُ مارتين أَثبِتْ أنكَ تُتْقِنُ الطيرانَ البطيءَ كما تدَّعي! طِرْ».

ذُعِرَ النورسُ الشابُ الهادىء مارتين ويليام من صُراخِ معلِّمِهِ، وأدهشَ نفسَهُ بأن أصبحَ ساحِراً في الطيرانِ البطِيء.

فأقلُّ هَبَّةِ نسيمٍ تساعدُه على إحناءِ ريشِهِ ليرفَعَ نفْسَهُ من الرمالِ إلى الغيومِ، ويحطَّ مرةً أخرى دون أن يرِفَّ بجناحيه.

أما النورسُ تشارلز لولاند فقد طار فوقَ جبالِ الريحِ العظيمةِ على

ارتفاعِ أربعةٍ وعشرينَ ألفَ قَدَمٍ. وهبطَ أزرقَ اللونِ بسببِ برودةِ الهواءِ الرقيقِ. كان مدهوشاً وسعيداً ومُصمِّماً على الارتفاعِ أكثرَ في اليومِ التالي.

ونجحَ النورسُ فليتشر الذي أحبَّ الطيرانَ البهلوانـيَّ كثيراً في دحرجَتِهِ الرأسيةِ البطيئةِ ذات السِّتَ عشرةَ نُقطةً. وتوَّجَ نجاحَهُ في اليومِ التالي بحركةِ دولابٍ ثلاثيٍ.

برقَ ريشُهُ تحتَ أشعةِ الشمسِ البيضاءِ بينما اختلَسَتِ النظرَ إليه أعينٌ مراقبةٌ من الشاطيء.

تواجَدَ جوناثان في كلِّ ساعةٍ بجانب كلِّ واحدٍ من تلاميذِهِ، مُوضِحاً، مقترِحاً، مُلِحّاً، ومُرْشِداً. طار معهم في الليلِ تحتَ الغيومِ وفي العواصِفِ، بينما تزاحمَ السِّرْبُ ببؤسٍ على اليابِسَةِ.

استرخى الطلابُ على الرمالِ بعد انتهاءِ الطيرانِ مستمعين إلى جوناثان الذي أدركَ أن بإمكانِهم أن يفهَموُا بعدَما تملكتْهُ أفكارٌ مجنونةٌ أنهم يعجزون عن فهمِهِ.

وتجمَّعَتْ تدريجياً حَلْقةٌ أخرى حولَ حلْقةِ التلاميذِ مُكوَّنَةً من طيورِ نورسٍ فضوليةٍ تستمعُ لساعاتٍ في الظلامِ ثم تتفرَّقُ قبلَ حلولِ الفجرِ حتى لا يراها أحدٌ.

وبعد شهرٍ من العودةِ تقدَّم نورسٌ من السِّرْبِ وعَبَرَ الخطَ الفاصلَ

طالباً أن يتعلَّم الطيرانَ. وبهذا السؤالِ قضي على النورسِ تيرانس، وأصبح منبوذاً لكونه التلميذَ الثامنَ عند جوناثان.

وفي الليلة التالية أتى النورسُ كيرك مينارد متمايلاً في خطوهِ على الرمالِ جاراً جناحَهُ الأيسَر، وانهارَ على قَدَمَي جوناثان قائلاً بهدوءِ من أشرفَ على الموتِ: «ساعِدْني، أتمنى أن أطيرَ أكثَرَ من أيِّ شيٍء آخرَ...».

قال جوناثان: «تعال ولنبدأ بالارتفاعِ عن الأرضِ».

«أنتَ لا تفهمُ لا أستطيع أنْ أُحرِّكَ جناحي».

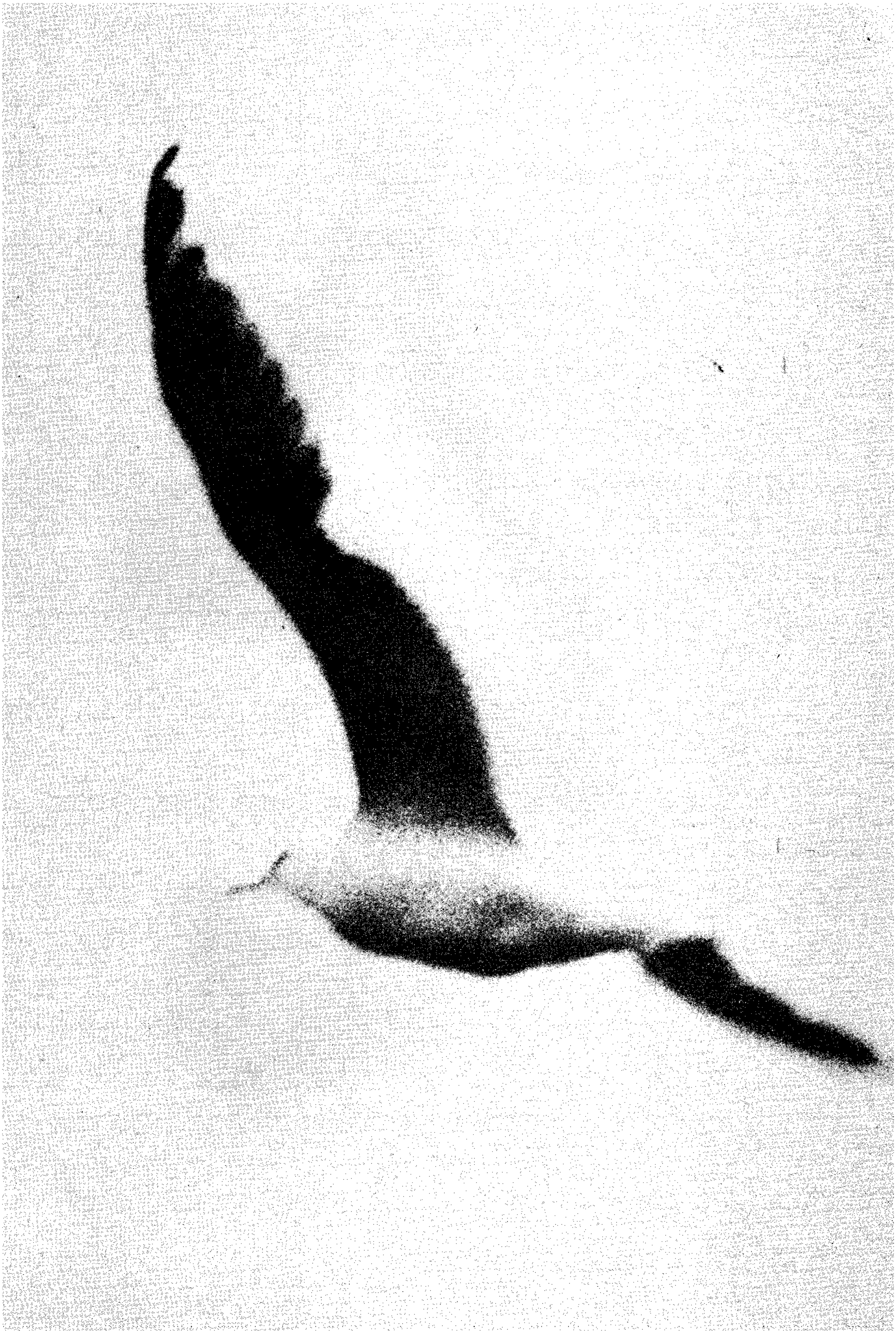
«أيها النورسُ مينارد أنتَ حرٌّ في أن تكون نفسَكَ على حقيقتها. هنا والآن. ولن يقفَ أيُّ شيٍء في طريقِكَ. هذا هو قانونُ النورسِ العظيمِ. القانونُ هو الذاتُ».

«هل تقولُ أن في استطاعتي أن أطيرَ؟».

«أقولُ إنك حرٌّ».

بَسَطَ النورسُ كيرك مينارد جناحَيه بسهولةٍ وسُرعةٍ ودون جَهْدٍ، ثم حَلَّقَ في هواءِ الليلِ الداكنِ. استيقظَ أفرادُ السِّرْبِ لمّا سمعوا صُراخَهُ، لقد صاحَ صيحةً عاليةً ومن على ارتفاعِ خمسمئةِ قدمٍ. «أستطيع أن أطيرَ! اسمعوا! أستطيعُ أن أطيرَ!». ومع شروقِ الشمسِ تجمعَ ألفُ طيرٍ





تقريباً حولَ حلْقةِ الطلابِ متطلعين إلى مينارد بفضولٍ . استَمعُوا محاولينَ أن يفهموا النورسَ جوناثان ، غيرَ مبالين بكونِهم ظاهرين للعيانِ .

تحدَّث عن أشياءَ بسيطةٍ ، كشرعيةِ الطيرانِ للنورسِ ، وكونِ الحريةِ الفطرةَ الحقيقيةَ له . قال أيضاً : « إن عليهم أن ينحُّوا كلَّ ما يقِفُ في وجهِ حريَّتِهم سواءً أكان من الشعائر أو خرافة ، أو قيوداً من أيِّ نوع » .

ظهر صوتٌ من الجموعِ قائلاً : « ننحي كلَّ شيءٍ حتى لو كان شريعَةَ السِّرْبِ ؟ » .

قال جوناثان : « الشريعةُ الوحيدةُ الحقيقيةُ هي التي تقودُك إلى الحريةِ ولا وجودَ لغيرِها » .

هتفَ صوتٌ آخرُ : « كيف تتوقعُ أن نطيرَ مِثلَكَ ، أنتَ نورسٌ مميزٌ ، موهوبٌ ، وإلهيٌّ أكثر من أي نورسٍ آخرَ » .

« انظر إلى فليتشر ولويل وتشارلز رولاند ! هل كلُّهـمُ مميَّـزُون وموهوبون وإلهيون ؟ لا ، ليس أكثَرَ منكم ولا أكثرَ مني . الفرقُ الوحيدُ هو أنهم بدأوا يفهمون ماهيَّتَهم الحقيقيةَ وبدأوا بالتدرُّبِ عليها » .

تمايل طلابُهُ بانزعاجٍ عدا فليتشر ، فَهُمْ لم يدرِكُوا إلى هذه اللحظةِ أنَّ هذا ما كانوا يفعلونَه طوالَ الوقتِ .



ازدادَ عددُ المتجمعين كلَّ يومٍ. لقد أتوا للاستفهامِ والاحتقارِ.

أخبر فليتشر جوناثان ذاتَ صباحٍ بعد تدريبٍ متقدِّمٍ على السرعةِ «يقولون في السِّرْبِ إنك تسبقُ زَمَنَكَ بألفِ سنةٍ إن لم تكن ابنَ النورسِ العظيمِ نفسَهُ».

تنهَّدَ جوناثان مفكِراً، هذا هو الثمن الذي تدفعُه عندما يُساءُ فَهْمُ مقاصِدِكَ.. إما أنْ يعتبروكَ شيطاناً أو إلهاً.

«ما رأيك يا فليتشر، هل تظنُّ أننا سَبَقْنَا زمَنَنا؟».

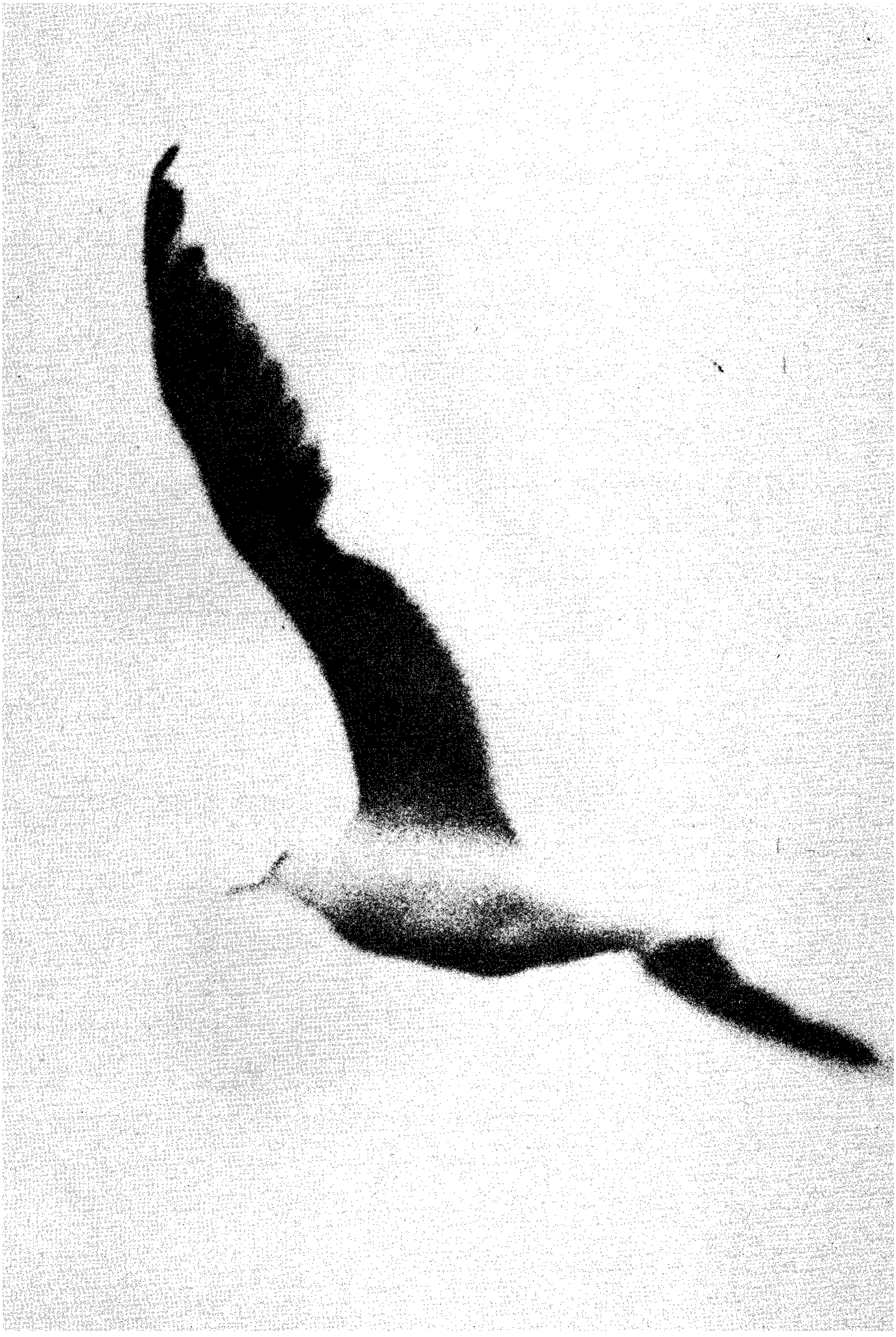
بعد صمتٍ طويلٍ أجابَ: «حسناً، هذا النوعُ من الطيرانِ موجودٌ دائماً لأولئكَ الذين يريدون اكتشافَهُ وتعلُّمَهُ، ولا علاقةَ لهذا بالوقتِ. ربما طوَّرْنا أسلوبَ الطيرانِ وتجاوَزْنا الطريقةَ التي يطيرُ وِفْقَهَا معظمُ طيورِ النورسِ».

«هذا جيدٌ، هذا أقلُّ سُوءاً من أن نكونَ سابقين لِعصرنا». قال جوناثان، وهو يتدحرجُ لينسابَ بالمقلوبِ للحظةٍ.

وبعدَ أسبوعٍ كان فليتشر يوضِحُ عناصرَ الطيرانِ السريعِ لصَفٍ من الطلابِ الجُدُدِ. لقد ارتدَّ لتوِّهِ من انقِضاضَةٍ من ارتفاعِ سبعةِ آلافِ قَدَمٍ كخيطٍ رمادي طويلٍ يشتعلُ فوقَ الشاطئِ ببضعِ إنشات، عندما رأى نورساً صغيراً يطيرُ طيرانَهُ الأوَلَ منساباً مباشرةً نحو مسارِهِ منادياً







أمَّهُ. وفي عُشْرٍ من الثانيةِ قَفَزَ النورسُ فليتشر لايند بشدةٍ نحو اليسارِ متجنِّباً الصغيرَ، وبسرعةِ مئتي ميلٍ في الساعةِ اتجه نحوَ صخرةٍ من الغرانيتِ الصَّلبِ.

بدت الصخرةُ باباً ضخماً وصَلْباً لعالم آخرَ. صُعِقَ من الخوف والصَّدمةِ عندما ارتطمَ بها، وعندها عامَ مع التيارِ في سماءٍ غريبةٍ ناسياً ومتذكراً، وناسياً وخائفاً، وحزيناً وآسفاً إلى درجةٍ كبيرةٍ.

وكما في أولِ يومٍ قابلَ فيه النورسُ جوناثان ليفينجستون سمعَ الصوتَ من داخلِه: «الخِدعةُ يا فليتشر هي أنَّ علينا أنْ نهزمَ قيودَنا تدريجياً، وبصبرٍ. فنحن لن نتمكنَ من الطيرانِ عَبْرَ الصخورِ حتى وقتٍ لاحقٍ حسب برنامَجِنا.

«جوناثان!».

«ومشهورٌ أيضاً بكوني ابن النورسِ العظيمِ». أجابَ مُدَرِّبُه بجفافٍ «ماذا تفعلُ هُنا؟ الصخورُ!أَلَمْ.. أَمُت؟». «أوه هيا يا فليتشر فَكِّرْ. من الواضح أنك لم تَمُتْ، مادمتَ تدبَّرتَ أمركَ بتغييرِ مستوى وعيِكَ فجأةً. الاختيارُ اختيارُكَ الآنَ. تستطيعُ أن تبقى هنا وتتعلَّمَ وِفْقَ هذا المستوى الذي يُعتَبَرُ أعلى من المستوى الذي كنتَ عليه. أو تعودَ وتعمَلَ معَ أفرادِ السِّرْبِ.

تمنَّى شيوخُ السِّرْبِ أنْ تحدثَ كارثةً ما، وقد فزِعوا عندما حقَّقْتَ مُبْتَغاهُم بهذهِ الطريقةِ».

«طبعاً أريدُ أن أعودَ إلى بقيةِ السِّرْبِ فقد بدأتُ لتوِّي بتعليمِ الفوجِ الجديدِ!».

«حسناً تذكَّرْ يا فليتشر ما كنّا نقولُهُ عن كونِ جسمِ النورسِ مجرَّدَ فِكْرَةٍ...؟».

هزَّ فليتشر رأسَه ومدَّ جناحَيهِ وفتحَ عينَيهِ على قاعدةِ الصخرةِ حيثُ تجمَّعَ السِّرْبُ بأكملِهِ، وسمِعَ ضجةً كبيرةً من الصُراخِ والزعيقِ عندما تحركَ.

«لقد عادَ إلى الحياةِ! الميتُ عادَ إلى الحياةِ!».

«لَمَسَهُ ابنُ النورسِ العظيمِ بجناحِه وأعادَهُ إلى الحياةِ!».

«لا إنه يُنْكِرُ هذا! إنه شيطانٌ! شيطانٌ أتى ليحطِّمَ السِّرْبَ!».

وقف أربعةُ آلافِ نورسٍ فزعيـنَ مما حَدَثَ. ! وسَرَتْ كلمـةُ شيطانٍ بينهم كريحٍ بحريةٍ عاصفةٍ. عيونُهم ملتمعةٌ ومناقيرُهم حادةٌ، لقد أحاطوا به ليدمِّروهُ.

سأل جوناثان: «هل ستتحسنُ لو ابتعدنا يا فليتشر؟».

«لا أمانعُ أبداً ...».

وبلحظةٍ واحدةٍ كانوا على بعدِ نصفِ ميلٍ ومناقيرُهم المشاكسةُ مغلقةٌ وفارغةٌ.

تساءل جوناثان: «لماذا يصعُب إقناعُ طائرٍ بحريتِه وإمكانيةِ إثباتِها لنفسِهِ لو أنه يمضي بعضاً من وقتِهِ متمرِّناً؟ لماذا يصعب هذا؟». تَغَيُّرُ المنظرِ أمامَ فليتشر دَفَعَهُ إلى طَرَفِ عينيه «ماذا فعلتُ الآن؟ كيف وصلنا إلى هنا؟».

«أنت قلتَ إنك تريدُ أن تبتعدَ عن الشَغَبِ أليسَ كذلك؟».

«نعم ولكن كيف فعلتُ هذا..؟».

«بالتدريبِ يا فليتشر مثلَ أيِّ شيءٍ آخرَ».

نسيَ أفرادُ السِّرْبِ كلَّ شيءٍ في الصباحِ، لكنَّ فليتشر لم ينْسَ «أتذكُرُ يا جوناثان ماقلتَهُ منذ مدةٍ طويلةٍ عن حبِّ السِّرْبِ بدرجةٍ كافيةٍ لتعودَ إليه وتساعدَهُ على التعلُّمِ؟». «نعم».

«لم أفهمْ كيف تمكنتَ من حبِّ مجموعةٍ مشاكِسَةٍ من الطيورِ التي حاولتْ أن تقتلَك لتوِّها».

«أه يا فليتشر أنتَ لا تحبُّ الكراهيةَ والشرَّ طبعاً. عليكَ أن

تتمرَّنَ على رؤيةِ النورسِ الحقيقيِّ الجيِّدِ الذي يكْمُنُ في كلِّ واحدٍ منهم، حتى تساعدَهُم على رؤيةِ أنفُسِهِم. هذا هو الحبُّ الذي أعنيهِ. وسَرعان ما يصبحُ الأمرُ ممتعاً عندما تُتقِنُه. وعلى سبيلِ المثالِ أتذكرُ طائراً شرساً صغيراً اسمُهُ النورسُ فليتشر لايند. لقد كان مستعداً لمقاتلة السِّرْبِ حتى الموتِ عندما نفُوهُ إلى جحيمِ الصخورِ البعيدةِ، وهاهو ذا الآن يرشدُهم إلى الجنَّةِ».

استدار فليتشر لايند والفزعُ يُطِّلُ من عينيهِ «أُرشدُهم ماذا تعني بقولِكَ أنا أُرشدُهُم؟ أنتَ المعلِّمُ هنا لا تستطيعُ أن تغادِرَ!».

«لا أستطيعُ؟ ألا تؤمِنُ بوجودِ أسرابٍ أُخرى وفليتشر آخرَ يحتاجُني أكثَرَ منكم لأقودَه نحو النورِ؟».

«أنا يا جون مجرَّدُ نورسٍ بسيطٍ وأنتَ ...».

«وأنا الابن الوحيدُ للنورسِ العظيمِ كما أظنُّ» تنهَّدَ جوناثانُ ونظرَ إلى البحرِ «لن تحتاجَني بعدَ الآن. عليك أن تتابعَ البحثَ عن ذاتِكَ كلَّ يومٍ. إنَّ معلِّمَكَ الآنَ هو النورسُ فليتشر الذي لا يقيِّدُهُ شيٌّء. عليكَ أن تفهَمَهُ وتتمرنَ على ذلك».

ترنَّحَ جِسْمُ جوناثانَ في الهواءِ بعد لحظةٍ وتَألَّقَ حتى أصبحَ شفافاً «لا تدعْهُمْ يطلِقُون الشائعاتِ السخيفةِ عن كوني إلهاً، فأنا نورسٌ يا فليتش. أحبُّ الطيرانَ ربما..».

«جوناثان!».

«لا تصدِق ما تراه عيناك يا فليتش المسكين، فنظرُكَ محدودٌ! انظرْ ببصيرتِك واكتشفْ ما تعرفُهُ، وعندها سترى الطريقَ إلى الطيرانِ».
توقَّفَ تألُّقه واختفى النورسُ جوناثان في الفراغ.

بعد قليلٍ سحبَ النورسُ فليتشر جَسَدَهُ عبَر السماء وقابـل مجموعةً متحمسةً من الطلابِ الجُدُدِ. قال بثقلٍ: «نبدأُ بقولنا: إنَّ عليكم أن تفهموا كونَ النورسِ فكرةً غيرَ محدودةٍ عن الحريةِ، وصورةً عن النورسِ العظيمِ. جسمُكُم من الجناحِ إلى الجناحِ هو فكرُكُمْ ذاتُهُ.

نظرَت إليه النوارسُ الشابةُ بإبهامٍ. هيا لا يبدُو لِما تقولُه علاقةٌ بالحركةِ الانقلابيةِ.

تنهَّدَ فليتشر وبدأ من جديدٍ مُتَفَحِّصاً إياهم بانتقادٍ «حسناً لنبدأ بالطيرانِ السَّويِّ» وبقولهِ هذا أدركَ أنَّ صديقَهُ لم يكنْ أكثرَ ألوهيةً من فليتشر نفسِهِ.

دون قيودٍ يا جوناثان؟ حسناً. لن يمضيَ وقتٌ طويلٌ قبْلَ أن أظهرَ من الهواءِ الرقيقِ على شاطئِكَ لأريَكَ شيئاً، أو شيئين عن الطيرانِ!

وبرُغم محاولاتهِ في أن يكونَ قاسياً مع تلاميذِهِ إلا أنه أحبَّهُمُ كثيراً عندما تمكَّن للحظةٍ من رؤيتِهم على حقيقتِهم.

وفكَّرْ مُبتَسِماً، دون قيودٍ يا جوناثان؟

لقد بدأ عصرُ المعرفةِ لأبناءِ جنسِهِ.

سيرافق جوناثان في رحلته كل أولئك الذين يسنون شرائعهم الخاصة ويؤمنون بصلاحها ... والذين يستقون المتعة من إتقان أعمالهم (حتى لو كانت خاصة بهم) والذين يدركون أن في الحياة ما هو أكثر من الظاهر. الآخرون سيفرون بسهولة نحو مغامرة ممتعة عن الحرية والطيران.

هذا الكتاب ببساطة، كتاب فريد.

النورس جوناثان / تأليف ريتشارد باخ، ترجمة ريمة الحسني. ـ ط. ١ . ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩ . ـ ٩٩ ص.، ٢٣ سم.

١ ـ ٨٢٣ أم   ب ا خ   ن ٢ ـ العنوان ٣ ـ باخ ٤ ـ الحسني

مكتبة الأسد

رقم الإيداع: ١٩٨٩/١/١٥

رقم الإصدار ٤٠٦

طلاس للدراسات والترجمة والنشر